د. أحمد زهاء الدين عبيدات

كيف تنقَلِبُ سَبْعُ رذائلَ للحداثةِ إلىٰ فضائلَ؟

فلسفةُ الحضارة في سياق المُكابَدَةِ والمَنهَجِيّةِ الاستِئلافِيّةِ

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلسفة

فلسفةُ الحضارة في سياق المُكابَدَةِ والمَنهَجِيَّةِ الاِستِئلاَفِيَّةِ

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

خطوط وظلال

للنشـــر والتـوزيـع

الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (20)

تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+

email: dar5otot@gmail.com

ص.ب: 11190، عمّـان 925220 الأردن

فلسفةُ الحضارة في سياق المُكابَدَةِ والمَنهَجِيَّةِ الاِستِئلَافِيَّةِ - د. أحمد زهاء الدين عبيدات

دراسة - طبعة أولى 2024

دراسة - جميع الحقوق محفوظة ©

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:

مكتبة

t.me/soramnqraa

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠٢٣/٨/٤٦٨٠)

١٤٩,٩٧

عبيدات، أحمد زهاء الدين احمد

كيف انقلب سبع رذائل للحداثة الى فضائل

.ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٣

(١٣٨) صفحة

ر.إ.: (٢٠٢٣/ ٨/ ٤٦٨٠)

الواصفات: /الحداثة/الفكر العربي/الثقافة العربية//العصرنة//التفع الاجتماعي//البلدان العربية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي: ISBN: 978-9923-40-733-2

د. أحمد زهاء الدين عبيدات

كيف تنقَلِبُ سَبْعُ رذائلَ للحداثةِ إلىٰ فضائلَ؟

فلسفةُ الحضارة في سياق المُكابَدَةِ والمَنهَجِيَّةِ الاستِئلافِيَّةِ

دراسة

الفهرس التحليلي

الإهداء 7
مُلخص 8
تمهيد 9

القسم الأول: في فقه رذائل الحداثة 11

1.1. الاعتراض الأول، في أن الحداثة تُغيِّرُ أسلوب غذائنا وحياتنا للأسوأ. 16
2.1. الاعتراض الثاني، في أن الحداثة طوفانٌ يُغرِق سوقَ الغذاء جملةً بفساده. 16
3.1. الاعتراض الثالث، في أن هذا التضخم في إنتاج اللحوم والزراعات مَرَدُّهُ إلى الحاجةُ الماسة لإطعام الانفجار السكاني لسرطان التضخم المديني. 17
4.1. الاعتراض الرابع، في أن الحداثة في تغييرها للغطاء النباتي والحيواني بل وتغييرها للسطح الجغرافي للكوكب بالعمران إنما تُدمر النظام البيئي العام لكوكبنا. 19
5.1. الاعتراض الخامس، في أن الحداثة لا تستخدم العلوم والتقنية للاغتذاء والعمران إلا لدوافع رأسمالية صريحة؛ أي لأجل طلب الازدياد في الثروة والمُتع المصاحبة لهذه الثروة. 21
6.1. الاعتراض السادس، في أن هذه الدوافع الحثيثة للتزايد في الثروة التي تُسخِّرُ العلم والتقنية لمصالحها، لتغيير سطح الكوكب وعمرانه، ما كانت لتكون لولا العقلانية النقدية التي هي منزلقٌ للشكيَّة والعدمية. 22
7.1. الاعتراض السابع، في أن كل ثورات الحداثة الغربية إنما تفرَّعت عن ثورة الإرهاب الحربي. 27

2. القسم الثاني: منهجيَّةُ تقييم الحداثة 31

1.2. الاختلاف حول المنهجية التقييمية: 31
1.1.2. هل يُجيبُ المرءُ عن أسئلة معاشه بالمنفعة الفردية؟ 31
2.1.2. هل يُجابه المرءُ تحديات المعاش بالمنفعة الجماعية؟ 32
3.1.2. هل يُواجِهُ الإنسان معاضلَ الحياة بالأخلاق المُقدَّسة والقيم الدينية التي تعلو على الفرد والجماعة؟ 32

4.1.2. هل يواجِه المرءُ مأزق الوجود بالاستنتاج من المبادئ العقلانية الكونية؟ 34
5.1.2. هل العلوم التجريبية بالاستقراء هي الأجدى؟ 34
6.1.2. هل المنهج الجدلي هو المآل النهائي؟ 36
7.1.2. المنهجية البشرية حِكمةً منفعيةً، أو فقهاً أخلاقياً، أو فهماً عقلانياً، أو استقراءً عِلميًّا، أو جدلاً إبداعيّاً إنما تفتقر دوماً للقوة الإبداعية للحدس. 37
8.1.2. ليس هناك حلٌ مسبق، ولا مبدأ قبلي، ولا مسلكٌ معصوم يُبلِّغُ الإنسان الصواب ويحمله على الفضيلة، ذلك أن الكَبَدَ سيَلُفُّهُ من داخله وخارجه، كما من فوقه وتحته. 39
2.2. كيف نهتدي بمنهجية "العناقيد الاستئلافية" حين نسأل مَثلاً "ما أفضل سيارة في العالم؟" 40
1.2.2. هل السيارة البريطانية الفخمة "الرولز رويس فانتُم" هي أفضل سيارة في عالم اليوم؟ 42
2.2.2. هل أسرع سيارة في العالم المُسماة "تواترا" هي أفضل سيارة في عالم اليوم؟ 43
3.2.2. هل آمَنُ سيارةٍ، أي "مارودر"، هي أفضل سيارة في العالم؟ 44
4.2.2. هل أكثرُ سيارةٍ رُخصاً وميسورية في العالم، الصينية "جيانغونان تي تي"، بأقل من 2500 دولار، هي أفضل سيارة في العالم؟ 44
5.2.2. كل دعوى من الدعاوى الأربع تتخذ قيمةً لا بد وأن تتصادم مع قيمة أخرى بنحو ذاتي. 45
3.2. بعض لوازم المنهجية الاستئلافية. 46
4.2. الخطوات الرئيسة للمنهجية الاستئلافية. 50

3. القسم الثالث: فقه فضائل الحداثة بإدراك نظائر التحديث في سياقات تَعمَّت على الناقدين 55

1.3. الانقلاب الأول، في أنّ منافع الثورة الزراعية المُعاصرة واجبةٌ، وأن هذه الثورة تطلب غايات وتعاند أخرى، والحكمة بالاستئلاف أن تُقَلِّلَ مضارها. 57

2.3. الانقلاب الثاني، في أن منافع الاستهلاك اللحومي المتوازن ضرورية، وأن هذا الاستهلاك يطلب غايات ويناقض أخرى، والأصوب بالاستئلاف أن تُقَلَّلَ مفاسِدُهُ. 61
3.3. الانقلاب الثالث، في أن مصالح التمدن المتوازن لا مفرَّ منها، وأن التمدن يطلب غايات ويعاند أخرى، والأعدلُ بالاستئلاف أن تُقَلَّلَ مظالِمُهُ. 65
4.3. الانقلاب الرابع، في أن منافع الثورة العقلانية التجريبية للعلم والتقنية حتمية، وأن العقلانية التجريبية تطلب غايات وتصادم أخرى، ويجدرُ بالاستئلاف أن تُقَلَّلَ مضارها. 71
5.3. الانقلاب الخامس، في أن مصالح الرأسمالية المتوازِنة ضرورية تطلب غايات وتناقض أخرى وينبغي بالاستئلاف أن تُقَلَّلَ شرورها. 79
6.3. الانقلاب السادس، في أن مصالح العقلانية النقدية واجبةٌ، وأنها تطلب غايات وتصادم أخرى، وينبغي بالاستئلاف أن تُقلل مضارها. 86
7.3. الانقلاب السابع، في أن مصالح التقنيات الدفاعية ضروريةٌ واجبةٌ، وأنها تطلب غايات وتصادم أخرى، وينبغي بالاستئلاف أن تُدْفَعَ ويلاتُها. 98

القسم الرابع: يا نقاد الحداثة، أتهدمونَ خلاصةَ التقدم البشري فضلاً عن مقاصد التحضُّر الإسلامي من حيث لا تدرون؟ 106

1.4. خلاصة تاريخية 106
2.4. خلاصة منهجية 112
جرد بالمصادر الأجنبية فالعربية 126
تعريف بالمؤلف 134

الإهداء:

إلى كلِّ مَنْ يُحِبُّ الأرضَ العربيةَ من المحيطِ إلى المحيط
ويُحِبُّ أن يرى أهلَهَا يزدادونَ عدالةً ومعرفةً وجمالاً وقوةً

مُلخص: الغاية من هذه الدراسة هو التنبيه على مصادر الخطأ والاضطراب في الدعاوى العربية العلمانية أو الإسلامية المنادية لرفض اعتبار الحداثة الغربية نموذجاً مُلهِماً. ومكمن الخطأ هو وقوع الحداثةِ في حالةٍ من الانزياح المزدوج لجهة الفساد أو الصلاح. وعليه تُخصص المقالةُ قِسمها الأول لإنصاف نقاد الحداثة لبيان الانزياح الأول لفساد الحداثة بسلسلة من الاعتراضات الوجيهة شأن مضارّ إنتاج اللحوم، وسموم الثورة الزراعية الخضراء، ونكد العيش في الثورة المدينية، والخطر البيئي من الثورة العلمية التقنية، وتأَلُّهِ الثورة الرأسمالية، والشكوكية العدمية للثورة العقلانية النقدية، والتوكيد على إرهابية التوسُّع الحربي الغربي لاستعباد الأرض ومَنْ عليها. لكن القسم الثالث يضربُ سذاجة الزعم المُجمل بفساد الحداثة بحصول الانقلاب التام للاعتراضات السبعة لتصير تحويراتُها من المحاسن، بل الضروريات الواجبة. والعبرة المنهجية لا في فساد بعض مظاهر الحداثة ولا في صلاح بعضها الآخر، بل كما يشرح القسم الثاني، في فقه توجيه الانزياح المزدوج لورطة الوجود البشري. هذا الفقه يتم بممارسة التنسيق بين تعارضات القيم، وهو منهج فلسفي شبكي أُسمِّيهِ "بعناقيد الاستئلاف". وبالاسئتلاف الأمثل لتعارضات الحداثة يختم القسم الرابع بكونِ الاقتداء بالحداثة قدَرٌ وجودي دونه الهلاك، ذلك أن الحداثة هي أوفى استمرارية لمجموع شبكات التراث الإنساني في مسيرته للاغتذاء والتمدن والتقنية والإنتاج والعقلانية والدفاع.

الكلمات المِفتاحية: نقد الحداثة، فضائل الحداثة، المنهجية الاستئلافية، العقلانية النقدية، العقلانية العلمية، الرأسمالية، الاستدامة البيئية، الإرهاب العسكري الغربي، التاريخ الكوكبي، نيكولاس رِشر.

د. أحمد زهاء الدين عبيدات
ونستن-سالم، ولاية كارولاينا الشمالية، جامعة ويك فورست
الرابع عشر من يناير /كانون الثاني، 2023

تمهيد

تفتتح هذه الدراسةُ قسمَهَا الأول،[1] باستشكال ماهية الحداثة، ثم تقوم بعرضٍ وتركيبٍ لسبع من مشكلات الحداثة كما تشيع عند كثيرٍ من الدارسين الغربيين اليوم ومن تأثَّرَ بهم من العلمانيين العرب من أتباع مدرسة فرانكفورت، وما بعد الحداثة، واليسار الجديد، وأرباب النقد الأدبي ما بعد الكولونيالي وغيرهم. والدراسة تقوم بذلك دون الاستشهاد بمواضع اعتراضهم على التعيين، بل بذكر ما شاع من النقد. وفي خضمِّ هذا العمل النقدي تنتقل الدراسةُ في قسمها الثاني لضبط منهجيَّةِ تقييم الحداثة من خلال التصور المُبتكَر للفيلسوف الألماني-الأمريكي نيكولاس رشر المسمى بـ Aporetic Method،[2] والذي أَصطَلِحُ على تعريبه "بالمنهجية الاستئلافية".[3] وبعد

---

[1] أتوجه بالعرفان والشكر الجزيل إلى المحلل السياسي الأردني والقارئ الشمولي الأستاذ حسن أبو هنية، والدكتور جميل أبو سارة المحاضر في الفلسفة الغربية المعاصرة بالجامعة الأردنية والمتخصص في الدراسات الإسلامية، واللساني المصري الدكتور أحمد عبد المنعم عطية، والمؤرخ السوري مؤنس البخاري، والإناسي والصحفي السوري محمد تركي الربيعو، والناقد السوري ياسر الزيات، والباحث المغربي في مباحث الكينونة (الأنطولوجيا) حمزة الدجيلي، والمهندس السوداني معمر إبراهيم، والأستاذ معتز أبو قاسم أستاذ اللغة العربية بجامعة طربزون لما أفاضوهُ عليَّ جميعاً من تصويبٍ ومُساءَلة ونقدٍ جنَّبتني الكثيرَ من الأخطاء الشكلية والمضمونية. وأنبّه أنهم لا يصادقُونَ على كثير من الصياغات والاجتهادات الواردة هنا، فلهم عظيم الامتنان على المطالعة.

[2] يتناول رشر مفهوم "الأبورتكس" الذي سنشرحه في القسم الثاني في أكثر من سبعةٍ وأربعين كتاباً من كتبه التي فاقت المئة والسبعين، ما يجعلهُ خصيصةً لاجتهاداته. مع ذلك أفردَ كُتيباً خاصاً لبسط مسائل المنهجية الاستئلافية في الكتاب المعنون:

Nicholas Rescher, *Aporetics: Rational Deliberation in the Face of Inconsistency* (Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 2009).

[3] نبهني القارئ المُدقِّق، المهندس معمر إبراهيم، بذهاب الفيلسوف طه عبد الرحمن إلى ترجمتها على هذا النحو: "المعوَّصات (*Apories*)، أو ما يسميه القدماء بـ "المطالب العويصة" أو بـ "الصعوبات"؛ والمعوَّصة

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفراغ من تعيين مرجعية التقييم تنتقل الدراسةُ إلى تقديم حججها الأساسية في قسمها الثالث المُنبّه على فضائل الحداثة بإدراك نظائر التحديث في سياقاتٍ تاريخية غابت عن الناقدين الاجتزائيين. ثم تختتم الدراسة قسمَهَا الرابع بالنداء على نقاد الحداثة العرب، بتحذيرهم من هدم مقاصد التحضُّر الإسلامي نفسه من حيث لا يدرون. وفي كل محاولةِ قلبٍ لانتقادات الحداثة تُوجِّه الدراسة الخطاب لنقاد الحداثة من المشايخ الإسلاميين أيضاً الذين يكاد بعضهم يكرر حجج العلمانيين العرب ذاتها. وباجتماع بعض من العلمانيين من أتباع ما بعد الحداثة مع بعض الإسلاميين العرب على نقد الحداثة يصير شرح هذه المسائل للطرفين غايةً في الأهمية.

وننبّهُ إلى أن سؤال الحداثة العربية والعوائق الفكرية والمجتمعية والدولية المُعيقة لهذه الحداثة، أمرٌ مؤجَّلٌ لدراسات قادمة، إذ السياق هاهنا سياق تاريخ الأفكار وتحليل القيم. أما سياق التكييفات والتطبيقات على الحاضر العربي الإسلامي فأمر يستدعي استفاضةً خاصة.

عبارة عن استحضار القولين المتناقصين بقصد تبين أيهما أصوب"، طه عبد الرحمن، سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2015)، 140.

1. القسم الأول: في فقه رذائل الحداثة

إنْ كان الصراع على **الإمامة** هو الشغل الشاغل للصحابة والتابعين، والجدال حول **الأثر والرأي** هو شغل الجيل الذي تبعهم، والاختلاف على **البيان والبرهان والعرفان** هو شغل الأجيال التي لحقت هؤلاء، فلا ينازِعُ جيلَنا اليومَ اصطراعٌ قدرَ الاصطراع على **التراث والحداثة**. أو قل، الحداثة هي أُمُّ الخلاف. ولا عجب في ذلك؛ إذ النقد من سمات العقول اليقظة. ونقد الروم وسكان أوروبا شمال المتوسط والساكنة من ورائهم عملٌ تاريخي متأصلٌ في الحضارة العربية والإسلامية. إما لأن الإسكندر والروم من بعده كانوا يحتلون هذه البلاد قُبيل الإسلام، أو لأنهم كانوا يحاربون الكيان العربي جنوب المتوسط من بعد ظهور الإسلام، أو لأنهم أخذوا يشرعونَ بالحملات الصليبية ثم التطهير العرقي والديني في الأندلس في العصور الوسطى، أو لأنهم صاروا يغزون دار الإسلام في الفترات المعاصرة ويولون على أهلها شِرارهم، فيغيرون معاش الناس وثقافاتهم لمصالح الغرب خصاصةً دون الالتفات لمصالح أهل البلاد وحقوقهم. كل تلك أسباب صريحةٌ ووجيهةٌ لِبُغض مظالم أوروبا والغرب جملةً منذ الإسكندر إلى يومنا هذا. وكلها أسباب تُحفِّز العقل المتصف بالتوقد والكرامة على نقدها.

لكن النغمة الثقافية هذه الأيام لا تقف عند ذم أسباب العدوان الغربي أو الهيعات الفارغة لتقليد الغرب، ولا تتوقف عند نقد السياسات والحكومات الغربية، بل تصل إلى نقد المُثل المعاصرة ذاتها، أي للقدح بالحداثة نفسها، وهو قدح لو تعلمون عظيم! والخوض في تشريح تاريخ الحداثة وتقديم تعريف وتقويم جامع مانع لها لا يسعُهُ هذا البحث. إذ لا يخفى على الباحث المُدقق أن تعريف الحداثة الغربية فيه إشكال من جهة التوصيف الشمولي وإشكال من جهة التقييم المركب.

فأما من جهة التوصيف، فما مِصداق الحداثة؟ فهل هي **الثورة الاستكشافية** الجغرافية الغربية لتغيير حدود العالم القديم باستكشاف القارات المجهولة أو غزوها

أواخر القرن الخامس عشر؟ أم هي **الثورة الإنسية** المُخالفة لتراث الكنيسة بإحياء تراث اليونان والرومان وترجمة تراث المسلمين وطباعة الكتب قُبيل القرن السادس عشر وخلاله؟ أم هي **الثورة التجارية** التي توصلت لصيغ تدريجية من صيغ الرأسمالية الداعية إلى التحرر من الإقطاع وإلى تحرير الأسواق وانتقال العمالة والتمويل بين السادس عشر والثامن عشر؟ أم هي **الثورة العلمية** المتمثِّلة في تشييد اتصال بين علوم الفلك والرياضيات لإنتاج الفيزياء بين كوبرنيكوس وغاليليو وصولاً لنيوتن أواخر السابع عشر؟ أم أن الحداثة هي **ثورة الحاكمية الشعبية (الديموقراطية)** في معارضة النظام القديم القائم على السيطرة المطلقة للملوك والنبلاء في هولندا[4] وأمريكا وفرنسا أواخر الثامن عشر؟ أم الحداثة هي **الثورة الصناعية** في بريطانيا بواكير التاسع عشر التي قامت على استخدام نُظم الطاقة الكثيفة للتحريك والتعدين لمجاوزة الحِرفة اليدوية والطاقة الضعيفة للإنسان والحيوان، ومن ثم مضاعفة الإنتاج وصهر الحديد لإنشاء البنى التحتية الراسخة؟ أم هي **ثورة الإمبريالية الأوروبية** لاحتلال كامل المعمورة نهاية الحرب العالمية الأولى استكمالاً للثورة الاستكشافية الجغرافية الأولى؟ أم هي **الثورة الزراعية والمدينية والتطبيبية** اللاحقة على الحرب العالمية الثانية التي ضاعفت من نفوس سكان الكوكب وطعامهم وعمرانهم؟ أم الحداثة هي **الثورة الفردانية** التي أخذت تبزغ مع بزوغ الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر وما تفرَّع عنها من **الثورة الجنوسية** أواخر الستينات في البلاد الغربية ولا تزال في تطور؟ أم هي **الثورة الفنية الجماهيرية الاستهلاكية** التي أخذت تعمُّ الأمم القارئة برواياتها وبالفنون السمعية البصرية

---

[4] تعيينُ الملكِ من قِبَلِ النبلاء في المملكة اللثوانية-البولندية في ثلاث سنوات بعيد 1572 كان أسبق من المحاولات الأوروبية الغربية للحكم الدستوري من النبلاء على الملك، بل قام النبلاءُ بتعيين الملك نفسه، لكن لم يكتب لها الاستمرار، فضاع ذكر هذه التجربة السباقة المهمة.

Glenn Eldon Curtis, *Poland: A Country Study* (Washington, D.C.: Federal Research Division, Library of Congress, 1994), 15.

لمخاطبة مشاغل الأمة، ثم سيطرة الدولة عليها من بعد، بنشر الموسيقى والمِذياع والمِبصار[5] لبث الأغاني والسرديات الداعمة للنظام وآيديولوجيا الحزب، ثم تحوّل كل ذلك لأجناس من الفنون المخصصة للأعمار والمناسبات والأمزجة والأوقات حسب الطلب التجاري ما يشكل هوية الفرد أو عبادته اليومية؟ أم هي أخيراً **الثورة الحاسوبية المعلوماتية** نهاية القرن العشرين بربط مكتبات الكوكب وعقوله وآلاته بشبكة واحدة تفاعلية؟

ولا نُجانب الصواب إذا ما قلنا إن مِصداق الحداثة هو تعاقبٌ واستمرار وتحوُّر وانتشار لهذه السيرورات جميعاً، أو قل **الحداثة هي جماع لتاريخ الثورات الإحدى عشرة (الاستكشافية، والإنسية، والتجارية، والعلمية، والديموقراطية، والصناعية، والإمبريالية، والغذائية-المدينية-التطبيبية، والفردانية-الجنوسية، والفنية الجماهيرية-الاستهلاكية، والمعلوماتية).**[6] لكن أيا كانت الثورات الداخلة أو الخارجة عن هذا التعريف فلن تخرج عن كون السيرورات متركزة في المبتكرات المعرفية والتقنية والمجتمعية والخُلقية في القرون الخمسة الفائتة للشعوب الغربية المسيحية على طرفي الأطلسي وما استلهمته من الحضارات السابقة أو الثقافات المجاورة. أما إدراك الأصول الفلسفية للحداثة، من خلال مقولاتها لنظام المعرفة والكينونة والأخلاق فأمر أشد عياصةً ولذلك أفردتُ في هذه المسألة كتاباً مُتخصصاً بالانجليزية أُترجم عنوانه على هذه الشاكلة: **الصيغة المُثلى للحداثة بين الفلسفة العربية الإسلامية والفلسفة**

---

[5] المِبْصار على وزن اسم الآلة، وهو اقتراح مقابل للتلفزيون لمناظرة لفظة المِذياع وهي الترجمة الشائعة للراديو.

[6] A. Z. Obiedat, *Modernity and the Ideals of Arab-Islamic and Western-Scientific Philosophy: The Worldviews of Mario Bunge and Taha Abd al-Rahman* (New York, NY: Palgrave Macmillan, 2022), 22-31, https://bit.ly/3IxLVDR

العِلمية الغربية: صورة العالم بين طه عبد الرحمن وماريو بُنغيه (نيويورك: بالغريف-ماكميلين، 2022).[7]

والمتأمِّلُ في هذه الخطاطة التاريخية للحداثة بوصفها (سيرورات الثورات الإحدى عشرة للتاريخ الغربي التي عُمِّمَت على سطح الكوكب) يفهم سرَّ التفاوت الكبير والتناقض الشنيع في العديد من تعريفات الحداثة. "فالتاريخ الحديث" **أولاً،** يبتدأ مع فتح القُسطنطينية سنة 1453 وهو ما لحقه بعد 39 سنة أكتشاف كولومبس للقارة الأمريكية في خِضم الثورة الاستكشافية الأوروبية. و"العِلم الحديث" **ثانيا،** قد أخذ صيغته الناضجة مع كتاب نيوتن في الفيزياء سنة 1687 فيما صار يسمى لاحقا بالثورة العلمية. أما "النظام السياسي الحديث" **ثالثا،** فهو وضعٌ يُطلق على النظامين الجمهوريين لأمريكا وفرنسا في ثورتي الحاكمية الشعبية في سنتي 1776 و1789 على الترتيب.[8] أما الفن الحديث **رابعا،** فهو ظاهرةٌ قد مرت بأطوار فنون الرسم غير الواقعي في القرن التاسع عشر حتى دخوله أجناسا أدبيةً ومسرحيةً بواكير القرن العشرين. و"المعمار الحديث" **خامساً،** حركةٌ مبتكرة في تصاميم العمائر والمنازل بعيدَ الحرب العالمية الثانية. يحتارُ الدارسُ للحضارة ها هنا، فهل الحداثةُ هي نهاية العصور الوسطى الكاثوليكية بظهور ممالك أوروبا الحديثة؟ أم نهاية المعارف اليونانية-المسيحية بالفيزياء؟ أم نهايةُ النظام الأروستقراطي الإقطاعي بالنظام الجمهوري؟ أم

---

[7] Obiedat, *Modernity and the Ideals of Arab-Islamic and Western-Scientific Philosophy*.

[8] صحيح أن "الثورة الإنجليزية المجيدة" لسنة 1688 جاءت بعد ثورة الجمهورية لسنة 1649 وكلاهما أسبق من الثورتين الأمريكية والفرنسية، إلا أن الثورتين الإنجليزيتين لم تُفضِيا إلى قيام جمهورية مستمرة. ومع أن الثانيةَ قيَّدت الملكية نسبيًّا وساهمت بتجديد كتابة القوانين، إلا أنها ليست مثالاً على الإنقلاب على النظام الأرستوقراطي-الإقطاعي القديم، ولا نموذجاً لنشر الحاكمية الشعبية في العالم كما هو حال الثورتين الأمريكية والفرنسية. وعليه لا تصلح الحالة الانجليزيةُ مثالاً على الثورة الديموقراطية.

نهاية الفنون الواقعية التمثيلية بالمذاهب الانطباعية والتعبيرية والسوريالية والدادائية والتكعيبية والعبثية؟ أم نهاية البناء بالحجر والخشب بظهور الحديد والإسمنت والزجاج؟ هذه التعريفات المتكاثرة توقِعنا في حرج وحيرة كبيرتين، إذ التاريخ الحديث بُعيد سقوط الامبراطورية البيزنطية لا يتطابق ثقافةً مع الأنظمة الديموقراطية اللاحقة بتاتا، وإلحاق المعمار الحديث بعيد الحرب العالمية الثانية بنهاية الامبراطورية البيزنطية يجعل مَطَّ مفهوم الحداثة مُربكا جدا. الأدهى أن الفن الحديث في أهدافه المتمردة صاحبة المنظور الذاتي والعبثي أحيانا يصادم أهداف العِلم الحديث في أهدافه الكونية والموضوعية والعقلانية. لا بل إن جانباً من الفلسفة الفرنسية أواخر الستينيات قد استدخل أهداف وحدوس الفن الحديث داخل فلسفته فيما صار يتسمَّى "بما بعد الحداثة"، كأن الحداثة هي ذاتها وضدها في آن معا! وعليه فمطُّ مفهوم الحداثة على أكثر من خمسة قرون وإدخال مقاصد متناقضة فيه تجعل التعريف المفهومي عملاً مستحيلاً، والصواب فهم الحداثة من خلال الخطاطة التاريخية لسيرورات الثورات الإحدى عشرة كما أسلفنا. وعليه فلن أخوض في الاختلافات المذهبية على التأسيس الفلسفي لهذه الظاهرة الفكرية-الاجتماعية-التقنية الكبرى وتتبُّع لوازمها التقويمة على الفلسفة واختلافها مع الدين والعلم والعلمانية. فذلك أمر استفاض كتابُ "الصيغة المثلى للحداثة" أعلاه في تحقيق مسائله. لكن غرضي هنا مزدوج؛ الأول هو تقديم استعراض سريع لما يخفى على المتعجلين المغالين في قدحهم بمجمل المشروع الحداثي أو رفضهم حتى لاستلهامه، والثاني التنبيه إلى الطامة الكبرى التي يسوقون الأمة العربية إليها. فلننطلق باستجماع سبعة من الاعتراضات الوجيهة المُقدَّمة على الحداثة التي تُعَدُّ انزياحاً عن الحالة المثلى، فلنشرحها ابتداءً من أهونها صعوداً لأكثرها شناعةً:

1.1. **الاعتراض الأول، أن الحداثة تُغيِّرُ أسلوب غذائنا وحياتنا إلى الأسوأ**، وحسبُكَ انتشار اللحوم في النظام الغذائي الحديث في المطاعم السريعة أو الطبخ المنزلي سواء. هذا الانتشار صار يضاعف من أمراض الشرايين مضاعفةً عظيمةً أفضت لتزايد أمراض القلب والتسبب بوفاة نسبةٍ متعاظمة من السكان. في أمريكا مثلاً تحدث واحدة من كل أربع وفيات بأمراض القلب.[9] وتكديس الدواجن والمواشي فضلاً عن زراعةِ وتوفير أعلافها وتنظيفها تجهيزاً لتغذية البشر، كل ذلك صار عبئًا على البيئة بحد ذاته؛ يكون هذا من جهة قهر الحيوان وحبسه وتعذيبه في المزارع، ويكون برفع مستويات الفضلات السُمية التي تنتجها هذه المزارع الحيوانية التي تسهم في الإحماء الكوكبي نفسه لشدة نفث غاز الميثان وتلويث الدورة الطبيعية للمياه. **فهل الحداثة شَرَّةٌ مُفضٍ لمقتلة الشرايين؟**

2.1. **الاعتراض الثاني، أن الحداثة لا تُغير أسلوب الحياة في أبعاض الأغذية، لا بل هي طوفان يُغرِق سوقَ الغذاء جملةً بفساده**. وهذا يتجلى في مشكلات الثورة الزراعية الخضراء منذ خمسينيات القرن العشرين. حيث صارت التقنيات الزراعيةُ تقتلع الغابات، وتسوي الأراضي، وتحرثُ، وتَبْذُرُ، وتُسَمِّدُ، وتروي، وترشُّ المبيدات الحشرية، وتحصُد، وتُنخِّل الحصاد، وتغلِّف المحاصيل، وتعالجها بالتقطيع والطحن والغسل، وتطبخها، وتعلبها للاستهلاك الفردي. وبكل هذه المتسلسلات صارت التقنيةُ قادرةً على مضاعفة الإنتاج الزراعي ثلاثة أضعاف أو أكثر فوق مستويات الزراعة البدائية. هذه المضاعفة مصحوبةٌ بإنقاص الحاجة للقوة العاملة لثلاثة أرباع.[10] ولو

---

[9] CDC, Centers for Disease Control and Prevention, "Heart Disease Facts" (USA, February 7, 2022), https://www.cdc.gov/heartdisease/facts.htm.

[10] Eric Njuki, "A Look at Agricultural Productivity Growth in the United States, 1948-2017" (USA: Resource and Rural Economics Division, Economic Research Service,

أضفنا تقنية سحب المياه للأراضي الجافة أو المتصحرة فمضاعفة الإنتاج فيها صارت مفتوحة لأن إنتاج المزروعات يكون من العدم. لكن وللأسف جل هذه الأغذية أو بعضها صارت مليئة بالكيماويات السامة أو المسرطنات القاتلة فضلاً عن سوء أساليب الحفظ وإفقاد الطعم والطزاجة. والأسوأ هو التحكم في مُلكية الحقول من أيادي الفلاحين الصغار إلى الشركات العظمى فضلاً عن العبث في مُورِّثات (DNA) بعض البذور والأشتال بحيث لم نعد قادرين على وجدان أصناف عضوية لم تعبث فيها الشركات الكبرى أو تحتكرها. ومن فوق هذا صار دخول فضلات اللدائن البلاستيكية لمجاري المياه مفضياً إلى دخولها في المزروعات والحيوانات ومن ثم لبطوننا، حيث بِتنا نأكل مقدار قطعة واحدة من بطاقات الائتمان المصرفية أسبوعيّاً![11] **فهل الحداثة تسميم للأبدان؟**

3.1. **الاعتراض الثالث، أن هذا التضخم في إنتاج اللحوم والزراعات مَرَدُّهُ إلى الحاجةُ الماسة لإطعام الانفجار السكاني للمدن المتضخمة،** حيث صارت البشر تتكاثر في مدن مزدحمة بأرقام لم يصلها ساكنةُ الأرض مطلقاً منذ ظهور البشر عليها. ولقد كانت البشرية منذ أيام المسيح إلى ما قبل العصر الصناعي في كل القارات تتفاوت ما بين مئتي مليون إلى سبعمئة مليون،[12] فإذا بها بعد العصر الصناعي تبلغ اليوم البلايين

July 29, 2021), 1948–2017, https://www.usda.gov/media/blog/2020/03/05/look-agricultural-productivity-growth-united-states-1948-2017.

[11] Katharine Gammon, "You Eat a Credit Card's Worth of Plastic Every Week: What Is Our Hidden Consumption of Microplastics Doing to Our Health?," *Nautilus: Science Connected*, May 18, 2022, https://nautil.us/you-eat-a-credits-card-worth-of-plastic-every-week-17950/.

[12] US Census Bureau, "Historical Estimates of World Population," accessed February 15, 2022, https://www.census.gov/data/tables/time-series/demo/international-programs/historical-est-worldpop.html.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الثمانية! وهذه عشرة أضعاف التعداد ما قبل الحداثي. لم يسبق لكوكب الأرض أن كلأ مثل هذا العدد من الأنفس الجائعة صباحاً، الكادِحة ظُهراً، المُتغَوِّطَةِ مساءً![13] والمعلوم أن الإمبراطوريات والممالك ما قبل الحديثة حوت مُدناً لا تزيد على معشار مجموع السكان،[14] أما بقية التسعين بالمئة من السكان فقد انتشرت في الأرياف والبوادي أو الغابات والسواحل لإعالة أنفسها أولاً، ولإعالة تلك النخب من سكان تلك المدائن ثانياً. وعلى العكس من ذلك فقد صار سكان المدن في أيامنا هذه يفوقون نصف سكان الأرض، وفي طريقهم إلى بلوغ الثُلثين.[15] وهذه أزمةٌ عظمى إذ صارت المدن مركزاً للتلوث والضوضاء فضلاً عن تكثيف الأمراض ونشر الأوبئة على أكبر عدد من السكان. وما زاد الطين بِلَّةً أن أهل المدن صاروا أبعدَ عن الطبيعة والصفاء، وأبعدَ عن عوائِلهم وجيرانهم، بل وفي اِكتئاب أو غربة عن ذواتهم، كل ذلك في دورة قاهرة من الاغتراب يختصرها القول "عملٌ فنومٌ، ثم تقاعدٌ، فموت". ويصوغ أحدُ دُعاةِ التمدن

---

[13] أضف لما ذكرناه هذا السياق العام المنشور أصله الانجليزي سنة 2013: "خلال القرن الماضي وحده، تضاعف عدد سكان العالم أربع مرات. ومن هذا المنظور، استغرق الأمر 200 ألف سنة ليصل عدد جنسنا البشري إلى حد المليار نسمة، بيد أننا زدنا عدد السكان بالقدر نفسه في غضون السنوات الثلاث عشرة الأولى من هذا القرن [أي القرن الحادي والعشرين]. وفي السنوات الثلاث عشرة المقبلة، سوف نضيف مليارا آخر، ومليارا آخر أيضا بعد أربعة عشر عاما - ليصل العدد الكلي إلى تسعة مليارات نسمة بحلول منتقصف هذا القرن." آل غور، المستقبل: ستة محركات للتغيير العالمي، ترجمة: عدنان جرجس (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2015)، المجلد الثاني، 20.

[14] Hannah Ritchie and Max Roser, "Urbanization," *Our World in Data*, June 13, 2018, https://ourworldindata.org/urbanization.

[15] Department of Economic and Social Affairs, "68% of the World Population Projected to Live in Urban Areas by 2050, Says UN | UN DESA | United Nations Department of Economic and Social Affairs" (New York, N.Y: UN, May 16, 2018), https://www.un.org/development/desa/en/news/population/2018-revision-of-world-urbanization-prospects.html.

الإسلامي النقد قائلاً: "فتوسعت مهامها [أي الدولة والمدينة الحديثة] لتقوم على [...] نشر التعليم والصحة وترتيب وتنظيف المدن ونحوها من مهام معلومة الآن. أي أنَّ نسبة مرتفعة من سكان المجتمعات الحالية يعملون في إنتاج خدمات غير مباشرة. وهذه هي البيروقراطية التي تؤدي للتشابك المقيت بين أفراد المجتمع دونما إنتاج فعلي."[16] **فهل الحداثة تنكيد مقيت على الإنسان؟**

4.1. **الاعتراض الرابع، أن الحداثة في تغييرها للغطاء النباتي والحيواني بل وتغييرها للسطح الجغرافي للكوكب بالعمران إنما تدمر النظام البيئي العام لكوكبنا**. كيف لا والحداثة من خلال شق الطرقات، وحفر الأنفاق، وطمر السبخات، ونصب العمائر الإسمنتية العملاقة مكان المروج والغابات، فضلاً عن اختلاق الجزر في البحار، ونشر الأمواج الكهرومغناطيسية للاتصالات عبر الغلاف الجوي، وتشبيك الأرض بمجسات ومستشعرات معلوماتية للحرارة والرطوبة وكُميرات التصوير، إنما اقتدرت على ذلك لأنها كشفت أسرار الطبيعة بالعقلانية التجريبية، أي العلم الطبيعي. هذا العلم لا يقبل القولَ حتى يكون قابلاً للتحقق التجريبي، بل ويزيد شرطين: الأول أن تكون هذه المُجرَّبات داخلةً في تصنيف شامل ينطوي فيه الأصغر ضمن الأكبر (من الجزيء الذري إلى المجرة)، والشرط الثاني أن يتعالق فيه البعيد مع القريب لإنتاج نسق تفسيري كوني شامل للموجودات (كمثل علاقة جاذبية القمر، بالمد البحري، باقتراب الأسماك من الشواطئ، بإطعام الصيادين، وبشبع أطفالهم، وسعادة القطط بكثرة العظام): فسعادة القطط تعلَّل هنا بجاذبية القمر الذي يعلَّل بطبيعة كونية ما. ولهذا النمط من التفكير بالعقلانية التجريبية لوازم: الأول أنها تنبذ ذاتية الإنسان وعاطفته حتى تورد الحقائق الموضوعية، فكراهة إصابة المرء بالسرطان لن تقدر على نفي إصابة

---

[16] جميل عبد القادر محمد أكبر، قَصُّ الحقِّ: العقل وحتمية الفساد (إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث، 2020)، 750.

المرء بالسرطان، رضيت ذاتيةُ الإنسان بذلك أو كَرِهت! والثاني أن هذه العقلانية التجريبية ترى الأصل في التراث البشري أنه فلكلور وأعراف يغلب عليها السذاجة حتى يرد الدليل على صحة مزاعم ذلك التراث. والثالث أقرب ما يمس روح الإنسان من عباداتٍ وفنونٍ وآدابٍ وأشعارٍ صارت تحت سطوة مطرقة العلم فتكذب منها ما تشاء وتقبل منها ما تشاء. والرابع أن هذه المعارف الموضوعية تتراكم وتتشابك فتتعقد حتى ليصير الصبي الفتي مُلزماً بمعرفة علوم التفاضل والتكامل من الرياضيات، والجدول الدوري من الكيمياء، فضلاً عن علوم أحيائية كثيرة تُنغِّص عليه مُتعَ الصبا وشاعرية الإنسان والفترة القصيرة جداً من الفتوة البشرية. إذن العقلانية التجريبية تصنف كل الموجودات، وتربط علاقاتها ببعض على قدر الإمكان، لكنها تضرب الذاتية والتراث والروحانيات وتنغص الصِبا! نعم لقد قدمت لنا العقلانية التجريبية العلم والتقنية، فماذا جنينا؟ لقد بات الماء يتلوث حتى في الآبار الجوفية المصمتة، والنفط والغاز والفحم ينضب بكثرة الاستهلاك بلا أمل في تجدده، والهواء يتكدر بالغازات الملوِّثة، وأجناس الحشرات اللازمة للبيئة تتناقص، والأسماك تتقلص في المحيطات، والحيوانات والطيور البرية في طريق الانقراض،[17] والغابات تنحسر أو تحترق، والتغير المناخي يغير من هطول الأمطار فتجف بعض الأنهار فتنمحق الزراعة والرعي في أقاليم ودول، فتتناحر القبائل على المراعي، وتتحارب الدول على المياه، ورمال الصحراء تزحف على المدائن فترمل العيون وتخنق الأنفاس. لكأن العلم بكل مكتشفاته الموضوعية ولكأن التقنية بكل مخترعاتها المُسهِّلة للمعاش هما الذراع الحديدي الباطش بسطح الكوكب نباتاً وحيواناً وإنساناً. وفي هذا الشأن يُلخص أحدُ نقاد الحداثة العرب الأمرَ بقوله: "فالتعريف السائد أن الحداثة هي 'استخدام العلم والتقنية

---

[17] مما ترجم إلى العربية في هذا الباب كتاب حديث: إليزابيث كولبرت، الانقراض السادس: تاريخ لا طبيعي، ترجمة: أحمد عبد الله السماحي (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2014).

والعقل'، وأنا أختلف معهم في ذلك وأعرِّفُ الحداثة بأنها استخدام العلم والتقنية والعقل المنفصلين عن القيمة والغاية."[18] **فهل الحداثة سرطان العلم والتقنية على سطح الأرض؟**

5.1. **الاعتراض الخامس، أن الحداثة لا تستخدم العلوم والتقنية للاغتذاء والعمران كما سبق إلا لدوافع رأسمالية صريحة، أي لأجل طلب الازدياد في الثروة والمُتع المصاحبة لهذه الثروة!** فالغالب على الشابِّ أنه يَكِدُّ ويتعب طوال يومه وأسبوعه ليظفر بامرأة. ولا يكون هذا الظفر إلا بثروات تُطمئِنُ المرأةَ على دوام حُسن العيش معه. والمرأةُ تَكِدُّ بدورها في العمل وتزيين نفسها وأطفالها ومنزلها بالثروة، والعوائل تتنافس في طلب التعليم والمهن المُجزِية لأولادها في المؤسسات والشركات طلباً للثروة، وهذ الشركات تموِّل انتخابات الرؤساء والنواب أو ترشي كبار العساكر للحصول على اقتطاعات من العقود والأسواق طلباً للثروة، وهؤلاء القادة يقمعون الخصوم ويفسدون في الأرض ويغمطون الشعوب طاعةً للإمبراطوريات الكبرى طلباً للثروة، وتلك الإمبراطوريات تسيطر على التوازنات الدولية وطرق التجارة واستخراج الموارد وتفوّق التسليح طلباً للثروة. هذه إذن سلسلة واحدة متصلة من الفرد الصغير إلى الشركة إلى الحكومة إلى العولمة. نعم سلسلةٌ سببية متصلة من طاهٍ يلف شطائر الفلافل، لزوجته التي تلف جديلةَ ابنتها، لعوائل تلف المدينة تعليماً لأبنائها، لخريجين يطوفون المدينة لمقابلات الوظائف، لشركات تطوف بين السياسيين طلباً للتسهيلات والعقود، لحكام طغاة يطوفون على العواصم الكبرى طلباً للرضى والقبول، لطائرات حربية تلف حول الدول الصغيرةِ تخويفاً لقادتها وإرغاماً لشعوبها على الطاعة. **من لفة الفلافل إلى لفة الطائرة الحربية يظل طلب الثروة مقصداً صريحاً تختصره ظاهرة**

---

[18] عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة. تحرير: سوزان حرفي (دمشق: دار الفكر، 2009)، 45.

الرأسمالية. هذا يعني أن دوافع طلب الثروة نمط عولمي أعظم يسيطر على دقائق أوقات الفرد وعائلته وسوقه ومجتمعه وحكومته ونظامه الكوكبي برمته. فمن أين خرج هذا الصنم الرأسمالي ليطوفَ الناسُ في عبادته وليلف الأفرادُ والجماعات والدول حوله لفاً؟ وفي هذا السياق يقول ناقد عربي للحداثة: "فالأنوار التي أدَّت إلى الحريات في الحداثة أفرزت الأغلال في المجتمعات المتخلِّفة من خلال [...] البنك وخطابات التوصيات والضمانات والكمبيالات والرُخَصِ والاستمارات والصكوك والتأشيرات والجوازات. فمن ملك شهادات أعلى كانت له السيطرة من خلال المادة، ومن ملك رأسَ مالٍ أكثر كانت له فرصة تسخير الآخرين لخدمته [...] وهكذا استعبدت المجتمعاتُ أنفسَها."[19] **فهل الرأسمالية الحداثية ربٌّ يستعبد الناس كُرهاً دون أن يستأذن أحداً؟**

6.1. **الاعتراض السادس، أن هذه الدوافع الحثيثة للتزايد في الثروة التي تُسخِّرُ العلم والتقنية لمصالحها، لتغيير سطح الكوكب وعمرانه، ما كانت لتكون لولا العقلانية النقدية التي هي منزلقٌ للشكية والعدمية.** هذه العقلانية تُخضِعُ القيمَ والأفكار والتراثات بمجملها لخاموس من الأدوات، أو قل ترى العقلانيةُ التراثَ **لغةً ذاتَ معانٍ تلزم التدقيق، واستدلالاتٍ منطقيةً تطلب التحقق، وأعرافاً اجتماعيةً لا تمتنع عن المراجعة، وذائقةً نفسانيةً تقبل التعدد، وقيماً أخلاقيةً يجوز أن تُحوَّرَ أو تتطور عبر التاريخ**. وحسبنا أن نرى فعل العقلانية النقدية في مثال صغير جداً هو القول المنسوب للمسيح في الإنجيل: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ".[20] والقول كما يشرحه أحدُ

---

[19] جميل عبد القادر محمد أكبر، قَصُّ الحقِّ: العقل وحتمية الفساد (إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث، 2020)، 61.

[20] وليم باركلي، تفسير العهد الجديد، ترجمة: فايز فارس وفهيم عزيز (القاهرة: دار الثقافة، 1993) 391-392. أو أنظر: الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي، الكنيسة القبطية الأرثوذكسية مصر، "اعطوا ما لقيصر لقيصر و ما لله لله - تفسير كلام المسيح"، https://st-takla.org/FAQ- accessed February 18, 2022,

شُرَّاح الإنجيل، هو سؤال إحراجي وجَّهتهُ طائفةٌ من اليهود لعيسى بن مريم عن الضريبة المفروضة لقيصر الروم آنذاك. فإن أجاب عيسى بن مريم برفض الضريبة اتهموهُ بالتمرد على القيصر فتخلصوا منه، وإن أجاب بوجوب الضريبة أَسقط عن نفسه الصورة المُتخيَّلة لدى اليهود في كونه المسيح المُنتَظَر أي الملكَ اليهودي القوي الذي لا يخشى في الحق لومة لائم. ولتحاشي الإحراجين أجاب المسيح بقولته الفضفاضة تلك. لكن بعيداً عن هذا السياق التفسيري والتاريخي فالجملة صارت تُؤخذ لذاتها، بل وصارت شعاراً ومبدأً للتفريق بين الدين والدولة، لا بل وأنها أساس للعلمانية التي ظهرت في القرون الثلاثة الأخيرة في أوروبا.

أمام هذه الجملة والفهوم التي ذاعت عنها في عقول القراء تَدفَعُ العقلانيةُ النقدية بإجراءاتها النقدية الخماسية، فتطالبُ العبارة بالمعنى أولاً، فما هي مُلكية الله وما هي ملكية قيصر؟ وهل كل ما ادَّعاهُ قيصرُ له خرج عن ملكية الله؟ المعنى غيرُ محددٍ بوضوح وصرامةٍ، وفيه غموضٌ وهو ما يفضي لمشكلة تالية، حيث تُسائل العقلانية النقدية منطق الجملة ومقتضياتها ثانياً، فهل السماوات والأنهار لله والأموال والزراعات لقيصر؟ لكن أوليست الزراعات نتاج مطر الله وأنهاره فكيف تَمَلَّكها قيصر؟ ولو وجدنا قيصر يقرر أن يقتل فلاناً وفلاناً لرأي اِرتآهُ، أفلا تكون تلك الأرواح مُلكيةً لله لا لقيصر فكيف به يتصرف بها؟ وبالعكس لو قلنا أن المزروعات نتاج الفعل الإلهي فكيف بالمُزارِع يتملك منزِلَه وحقله؟ ولو كنتُ مزارعاً وجاءني حشدٌ من الفقراء أرباب القذارة يطلبون مشاركة مالي وطعامي وفراشي فهل يجب عليَّ إسكانهم معي؟ أم يجوز لي طردهم أو قتالهم؟ غموض المعنى الأصلي يُفضي لتناقض في الاستدلالات المنطقية

Questions-VS-Answers/01-Questions-Related-to-The-Holy-Bible__Al-Ketab-Al-Mokaddas/036-God-VS-Caesar.html.

المتفرعة عن هذه الجملة. وزِدْ على ذلك أن العقلانية النقدية تُسائل العرف الاجتماعي في تلك المقولة ثالثاً. فأن يكون القيصر هو المالك الأعظم لا يعدو أن يكون صيغةً تنظيميةً اجتماعيةً في عصر من أعصار الإمبراطوريات. فلو ذهبنا لمناطق القبائل بعيداً عن متناول الملوك والأباطرة لوجدنا الضريبة منعدمةً، والتساوي بين رجال القبائل شبه تام. ولو ذهبنا لعصور الدولة الحديثة لوجدنا الدولة تعطي للمواطنين الفقراء من الصحة والتعليم والبنى التحتية أكثر مما تأخذ منهم. أي إن هذا القول المنسوب للمسيح ليس قانوناً كونياً يشمل الأزل ماضياً والأبد مستقبلاً، لكنه قول محصور في مرحلته التاريخية لا يزيد عليها. وفوق ما سبق تتعمق العقلانية النقدية بالتشكيك بالأذواق النفسانية التي طرحت ذلك القول رابعاً، إذ هل يجوز أن ينقسم العالم لقسمين؛ عالم أرضي يسوده الظلم ويجب الخضوع فيه لقيصر، وعالم سماوي تُطلبُ فيه عدالة الإله بالصلوات والطقوس؟ أم أن هذا التفريق محض ذائقة نفسية ترى العالم شهوداً وغيباً، وأن الشهود فيه الفساد والزوال وأن الغيب فيه الطُهر والبقاء؟ وماذا لو أَلِفت نفسيةُ المرء قابليةَ العالم المشهود للترقي الروحاني؟ فلماذا لا تحل العدالة في العالم الأرضي كما السماوي؟ وماذا لو أَلِفَت النفسُ قابلية الغيب للانكشاف التدريجي بالتفكر والاستكشاف العلمي؟ أفلا يجوز أن يتصل الغيب بالشهادة دون برزخ بينهما؟[21] كل هذه الترسانة من الأسئلة والشكوك توردها العقلانية النقدية على

---

[21] مثال هذا جزم بعض مفسري القرآن بانحصار معرفة ما في الأرحام بالله تعالى وحده ومن ثم فهو من أمور الغيب، والصواب أن جنس الجنين وصحته ومرضه أصبح محلاً للمعرفة اليوم وهو في رحم أمه وقبل ميلاده. مثال ذلك الزعم ما يروي الطبري في تفسيره: "(إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآية، أشياء من الغيب، استأثر الله بهنّ، فلم يطلع عليهنّ ملَكاً مقرّباً، ولا نبياً مرسلاً. (إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أيّ سنة، أو في أيّ شهر، أو ليل، أو نهار. (وينزلُ الغَيْثَ) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً ينزل؟ (وَيَعْلَمُ ما فِي الأرْحامِ) فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أم أسود، أو ما هو؟"، تفسير الآية 34 من سورة لقمان.

الذائقة النفسانية التي تسوِّغ انفصال العالم لعالمين متقابلين من الشهادة والغيب. ومن بعد إنزال هذه الأدوات التي تتفنن فيها العقلانية النقدية بين وضوح المعنى وغموضه لغةً، وصحة الاستدلال وفساده منطقاً، وعموم المواضَعَة الاجتماعية وخصوصها لسياقها التاريخي عُرفاً، وإطلاق الحالة النفسانية أم تقييدها بصاحبها ومنطلَقَاته نفسيةً، يجيء نقد القيم خامساً من جهة الفضيلة أو الرذيلة. فهل طاعة الحاكم الظالم بالضريبة رذيلةٌ لتمكينها ظلمه (وهو فهم لمارتن لوثر في ثورة الخوارج البروتستنية)؟ أم طاعة الحاكم واجبةٌ لأن الله مَكَّنَه من ظلمه (وهو تفسير لبعض المسيحيين)؟ أم أنَّ طاعة الحاكم الظالم ضرورةٌ لحفظ الأنفس تُتَقبَّل حتى زوال ظلمه (وهو ما فعله مسيحيو البلقان تحت الحكم العثماني)؟ وماذا عن وجوب العمل المُضاد بالانقلاب على قيصر مع دفع الضريبة له تُقيةً (وهو ما صنعه بن غوريون مع الدولة العثمانية)؟ ولماذا لا يُخاض الانقلاب على الحاكم الظالم بصعود الجبال والتخفي في الغابات وخوض حرب العصابات عليه؟ كل هذه التقليبات القيمية تتحدد بتعاضد أدلة سياقية أخرى وتحدد مدى فضيلة الفصل في الأعطية بين الله وقيصر، كما تحدد مدى التحوير المطلوب في هذا الإعطاء في حال قُبلت فضيلته.

نفهم من هذه المناقشة المتمحورة حول جملة قصيرة مأثورة كيف أن المُعتقدات المسيحية-اليهودية ديانةً، والثقافةِ الإغريقية-الرومانية مؤسساتٍ، هما الميراث الذي ورثته أوروبا، فخضع بأسره لمراحل متعاقبة من التصفية والتنخيل الذي قامت به العقلانية النقدية للحداثة بأدواتها الخمس. فطالَبَت لغةَ التراثِ بأن تنتج معانيَ تقبل

التدقيق وهو ما قامت به علوم الفيلولوجيا ونقد الكتاب المقدس.[22] ثم ساءلت استدلالات ذلك التراث بمنطق صارم وهو ما قامت به أجناس متعددة من اللاهوت الطبيعي ولاهوت التحرير وفلسفة الدين.[23] ثم ساءلت أعرافه الاجتماعية بما يسمح بالمراجعة وهو ما قامت به العلوم السياسية وعلم الاجتماع وحركات النقد الاجتماعي.[24] ثم شككت بالذائقة النفسانية لأرباب ذلك التراث من خلال علم النفس والأنثروبولوجيا.[25] وطالبت أخيراً بتطوير القيم السلوكية من خلال علم الأخلاق.[26] هذا يعني أن كل التراث صار تحت مشرحة خماسية لعلوم اللغويات، والمنطق، والاجتماع، والنفس، والأخلاق. أي أن التراث صار يفقد سيادته للحاكمية على الفكر والمعاش وقدرته على تحقيق الإجماع بحيث صارت "تتكوثر" معانيه، وتتناقض استنتاجاته، وتخضع شرائعه لتقلب التاريخانية، وتُفهم سلوكات أعلامه ضمن تباينات نفسانية، فصار كل شيء قابلاً للتطور أو التجويد الأخلاقي. أمام هذا التكوثر العظيم قد تستشكل

---

[22] من الأعمال المتخصصة النادرة في الوطن العربي هذا العمل، يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس: دراسة في التأريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي (دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2009).

[23] من الكتب الوجيزة والمعمقة ذات الترجمة الحسنة هذا الكتاب. لودفيج فيورباخ، أصل الدين، ترجمة: أحمد عبد الحليم عطية (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991).

[24] من أجود الشروح التي تشرح معركة المسيحية مع الحراك الثقافي لمجتمعها هذا الكتابُ ذو الترجمة القديمة لكنه لا يزال صعب المضاهاة: جون راندال، تكوين العقل الحديث، ترجمة: جورج طعمة (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013).

[25] من الشروحات الخصيبة والعجيبة التي وقفت عليه في العربية هذا الكتاب: جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا: رموزها، أساطيرها، أنساقها، ترجمة: مصباح الصمد (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993).

[26] مما ترجم لعالم أخلاق متدين ملم بالحقل: هانز كونج، مشروع أخلاقي عالمي: دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة: جوزيف معلوف وأورسولا عساف (بيروت: دار صادر : المكتبة البولسية، 1998).

البنتُ اليافعة معنى الحياة إبان كرب شديد تواجهه، ومع حداثة الأسنان ونقص الخبرة وضعف التعليم تقرر أن الحل هو الانتحار قفزاً من سطح العمارة لإيقاف استهزاء زميلاتها بنبرة صوتها أو عيب في شكلها. ويلخص المسيري حال العقلانية النقدية في الحداثة لتطورات عجيبة في مرحلة ما بعد الحداثة بقوله :"في تصوري إن ما بعد الحداثة ترى أن كل شيء نسبي ولا يوجد مطلق وأنه يمكن تفكيك كل شيء لنصل إلى هذه الحقيقة، إذ إن كل قول يحوي داخله تناقضاً لا يمكن حسمه، وأنه من خلال التفكيك تظهر الأبوريا، أي الهوة التي ليس لها من قرار."[27] **فهل الحداثة زلزال طاحن لكل تراث فلا يقين بما ورثناه وقدسناه؟**

7.1. **الاعتراض السابع، ينبني على كل ما سبق، وهو أن كل ثورات الحداثة الغربية إنما تفرعت عن ثورة الإرهاب الحربي.** إذا نفهم الآن الشرارة المحفِّزة لكل الثورات اللاحقة، أي كيف أن الثورة الإنسية للعقلانية النقدية في عصر النهضة هي التي مهَّدت لتساوق الثورتين المتعاضدتين: ثورة الرأسمالية وثورة العقلانية التجريبية للعلم بين القرن السادس عشر والثامن عشر، وهو ما قاد لانفجار ثورة التمدن المتطلب لثورة الإنتاج الزراعي والحيواني في القرن العشرين. لكن كل هذه الثورات ما كانت لتكون لولا انبناؤها جميعاً على آلة الغزو والقتل الأوروبية التي افتتحتها الكشوف الجغرافية. وهو ما يتفطن إليه المسيري مُنبِّهاً إلى أن الرؤية الإمبريالية الحربية هي "الرؤية الكامنة وراء معظم الظواهر الغربية، و[لو] استخدامنا الإمبريالية مقولةً تحليليةً، فإننا سنرى [...] جوهرَ الرؤية المعرفية [...أي] تحويل البشر والعالم إلى مادة استعمالية نافعة".[28] ولقد

---

[27] عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة. تحرير: سوزان حرفي (دمشق: دار الفكر، 2009)، 256.

[28] عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة. تحرير: سوزان حرفي (دمشق: دار الفكر، 2009)، 291.

بدأت هذه السيرورات **أولاً** على العالم العربي بالحروب الصليبية وحرب التطهير العرقي للأندلس، ولما فشلت هذه الحركات الصليبية باقتحام دار الإسلام عنوةً حصل **ثانياً** الالتفاف على العالم العربي الذي كان أشبه بسمسار تجاري بين الشرق والغرب ومن ثم غزو العالم الجديد، حيث غزا الإسبانُ والبرتغاليون القارة الأمريكية أواخر القرن الخامس عشر، **وثالثاً** بغزو شرق آسيا عند الجزر والموانئ على الطريق التجاري للصين وابتلاع القارة الهندية بمغانمها التي لا تنضب، **ورابعاً** باقتسام القارة الإفريقية في القرن التاسع عشر، **وخامساً** بتمزيق كامل بلاد المسلمين في القرن العشرين والنيل من الحضارة الصينية حتى أعاد لها ماو سيادتها، وصولاً للحرب الباردة حيث صار الكوكب بأسره تحت إمرة البيت الأبيض والكرملين لا يحيد عن أمرهما إلا هالك. في هذه السيرورة الحربية لكأن الكوكب بأسره صار تَرِكةً وَرِثَها الشمال الصناعي الأشقر حصراً، ولكأنَّ البشرية بأعراقها وثقافاتها جميعاً عبيدٌ تملكهم ذلك الشمال، ولكأن ألسنة الشعوب بأكملها لا عبرة فيها إلا لو نطقت بلغات الشمال الأشقر، إنجليزيةً أو إسبانيةً أو روسيةً كما في جُل سكان الأمريكتين وأستراليا وسيبريا وغرب الأورال، ولكأن كل تجارب الكنفوشوسية والبوذية والهندوسية والإسلام والأزتيكية ومؤسساتها صارت رهن أوامر المعسكَرَين الحدائيين: الشيوعي أو الرأسمالي في فترة الحرب الباردة، إو إمرة المعسكر الغربي بُعيد انهيار السوفييت. وما كان لهذا التملك الكاسح والاستكبار المشين للشمال الصناعي الأشقر أن يكون لولا تفوق السلاح. فسهولة غزو القارة الأمريكية أواخر القرن الخامس عشر كان لبدائية تلك الشعوب في الحرب والتنظيم العسكري، لحقه غزوٌ لسواحل المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا لضعف عصبية تلك الشعوب وضعف القدرة على تجييش الأطراف، حتى جاء كسرُ أنوف المسلمين من ترك وفرس وعرب بواكير القرن العشرين بعد اكتمال آلة الحرب الغربية بالدروع والأسلحة النارية الكثيفة، وصولاً للهيلمان المطلق بتفجير القنبلة الذرية الأمريكية

سنة 1945 وتلك السوفييتية بعدها بأربع سنين. فماذا عساها تقاوم الشعوب الماقبل حداثية أمام هذه السيرورة الإرهابية الماحقة؟ فمن استبسل بالسيف عاجلته نيران البنادق النارية عن بُعد، ومن استتر بالقلاع دكته المدفعية داخل حصنه، ومن استحوذ على بعض الأسلحة النارية الخفيفة اِصطادته الدبابات المدرَّعة، ومن امتلك بعضاً من المدفعية الثقيلة قذفته طائرات من فوق رأسه بالحمم دون أن يراها، وصولاً للصواريخ النووية العابرة للقارات ما يفني المدينة عن بكرة أبيها دون أن تدري ما أفناها ولا كيف فَنَتْ، **فلا عاصم لكم اليوم أيها البدائيون من لظى الحداثة.**

نعم، فآلة الحرب الغربية تلك جلبت اللحوم من مراعي أستراليا والأرجنتين وأمريكا فأطعمت الغربيين، ومزارع القصب والأرز والفاكهة التي يفلحها أقنان أو عبيد المستعمرات أشبعت الغربيين، وثروات العالم الخام أو المُصنَّعة انسكبت فضاعفت الرأسمالية، وأسواق الشعوب البعيدة المتعطشة للمنسوجات والأدوات والآلات والكماليات صارت تشغل مصانع الغرب وقطاعاته العمالية دون كلل، كل ذلك مهَّد لدعم مراكز البحث والتطوير والمختبرات لخدمة العقلانية التجريبية وعلومها. وتراكم تلك الثروات أعان الجامعات والمكتبات والمتاحف في أكسفورد وباريس وهارفارد وموسكو لإمداد العقلانية النقدية بشكوكها وتأويلاتها لدراسة مجمل التراثات البشرية، لنصل اليوم لعولمة التمدن والذكاء الصناعي الذي يزحف على سطح الكوكب شرقاً وغرباً. **فهل الحداثة أداة الغرب لاستعباد أنفس الكوكب وثقافاته وحيواناته ونباتاته وعمرانه لإمرة المُسلَّح الأشقر؟**

الحاصل من القسم الأول هذا هو محاولةٌ لاستجماع سابوع من الاعتراضات القوية على الحداثة: فثورة إنتاج اللحوم صارت مقتلةً لشرايين البشر، والثورة الخضراء غدت تسميماً للأبدان، والثورة المدينية آلَتْ تنكيداً على الإنسان، والثورة العلمية التقنية صارت سرطاناً يخنق الكوكب، والثورة الرأسمالية الحداثية تألَّهت فغدت رباً

يُطاف في عبادته أفراداً وشعوباً، والثورة العقلانية النقدية تحولت زلزالاً طاحنا لكل المُسلَّمات فلا إيمان ولا سكينة، والثورة الحربية تحولت أداةً للغرب لاستعباد الأرض ومَنْ عليها. فأي جنون وإفساد ورذيلة هذا الذي يدعو للاحتذاء بسابوع الحداثةِ ذاك واعتناقها طريقةً للحياة؟ هذه هي منطلقاتٌ أساسية وخلاصات مكثفة للمرافعة ضد مجمل مشروع الحداثة من وجهة نظر خصومها ودارسيها، وهي معروضة بوضوح وإيجاز وشمولية وتركيب منظم لا تكاد النصوص القلقة لنقادِ الحداثة أن تجيده. لكنَّ ما فات هؤلاء الخصوم أمور عظيمةٌ يتخصص القسم الثاني والثالث باستكشاف أعماقها والربط بين أبعادها، فليصبر على مطالعتها المُتشكِّكُ في إمكان انصلاح الحداثة.

2. القسم الثاني: منهجيّةُ تقييم الحداثة

اِعلَمْ أن ما فات نقاد الحداثة في مقارنتهم وتقييمهم للمعاش البشري الحداثي المتجلي في المفاسد السبع أعلاه أمران عظيمان، الأول القصور الإدراكي عن التفكر في مأزق الكائن البشري جملةً، والثاني قصور معرفي معيب في استيعاب مسار التطور البشري على كوكب الأرض لما قبل الحداثة، وما عاصرها، وما قد سيأتي بعدها. فلأكشفنَّ عن خطر الأمر الأول في هذا القسم وسيأتي خطر الثاني في القسم الثالث من بعد.

1.2. الاختلاف حول المنهجية التقييمية: لا يخفى على أي دارس مُتعمِّق أن المعترك الفلسفي قديم وعويص ويتلخص في السؤال الأعظم: "ما الطريق الاستدلالي الأمثل لعلاج مأزق الكائن البشري؟ أو قُل ما المسلك القيمي الأنسب لعمل الأصلح؟". وفي هذا اختلاف عظيم بالطبع سجَّله تاريخ الفلسفة في نزاعاته المذهبية حول نظريات المعرفة والقيمة والعمل، أُوجِزُ منها على التبسيط سبع إجابات كبرى.[29]

1.1.2. فهل يُجيبُ المرءُ على أسئلة معاشه بالمنفعة الفردية؟[30] لو كان هذا سليماً لجاز للسَّرقة أو الغش أو خيانة العقود أن تكونَ مسالكَ مقبولةً في التفكير والعمل لأنها تحقق المنفعة الفردية في كثير من الأحيان. وبما أن تلك الأفعال النفعية الثلاثة تفضي لضياع بعض المِلكيات بالسرقة، واضطراب المنتجات بالغش، وعدم استقرار

---

[29] من أراد نصا يسيراً في تاريخ الفلسفة للمبتدئين فهو متاح في كتاب "حكمة الغرب" لمؤلفه الفيلسوف القدير برتراند راسل. أما من أراد التعمق فلحسن الحظ أشرف المصري الدكتور إمام عبد الفتاح إمام على نقل موسوعة فريدريك كوبلستون "تاريخ الفلسفة" في تسعة مجلدات وهو من أوسع ما نقل للعربية في تاريخ الفلسفة. https://archive.org/details/ThesesDZBooks8

[30] هناك جانب آخر للفردانية محورها الحدس الفردي، لا المنفعة الفردية، لكن مناقشة الفردانية النفعية كاف للتمثيل على تهافت شقيقها التوأم.

الأسواق بخيانة العقود، فهي غير نافعة لعاجل المعاملات المالية في مجموع المجتمع، فضلاً عن مضرتها لآجل الأفراد النفعيين المقترفين لها في حال الإمساك بهم والاقتصاص منهم.

2.1.2. وإذا كانت المنفعة الفردية لا تُقبَلُ على إطلاقها بل وجب تناسقها مع مجمل مصالح الجماعة **فهل يُجابه المرءُ تحديات المعاش بالمنفعة الجماعية؟**[31] وفي هذا موقف أكثر حصافةً في حفظ الملكيات، والصدق في المعاملات، واستقرار العقود، لكنه لا يُمكِّننا من محاكمة المظالم الجماعية المُضطرِدة. فقد تكون العبودية مِلكيَّةً مشروعة كما هو ثابت في كثير من الأعصار فهل نحافظ على هذه المِلكيات؟ وقد تدَّعي الطُغمة الحاكمة العِصمة وأنها فوق النقد، فهل من الصدق المعرفي أن يُربي الأستاذُ أجيالَ التلاميذ على تلك المبادئ الكاذبة؟ وقد يكون استعلاء السُلالات الحاكمة واحتكار الطبقات للمناصب وراثةً وعقوداً كُتِبَت في القوانين، فهل نشجع استمرار المجتمع على الوفاء بتلك العقود الظالمة؟ في الأمثلة الثلاثة للعبودية، والعصمة، والاستعلاء الوراثي حججٌ قوية على استمراءِ المجتمع لتبني مسالك ضارة ببعض أفرادها أو بقطاع كبير من المجتمع، بل واستمراء المجتمع للإضرار بنفسه في حال اعتناق أمة أنها شعب مختار فوق شعوب الأرض فتأخذ تحارب جل جيرانها كما فعل النازيون فأوقعوا بَلَدَهم في شرِّ هزيمة واحتلال روسي وأمريكي لا تزال آثاره إلى يومنا هذا!

3.1.2. فإذا بانَ أنَّ المنفعة فرديةً أو مجتمعيةً لابد واقعتانِ في نتائج فاسدةٍ بنيَوياً، أي بحكم طبيعةِ المسلك نفسه، **فهل يُواجِهُ الإنسان معاضلَ الحياة بالأخلاق المُقدَّسة والقيم الدينية**[32] **التي تعلو على الفرد والجماعة؟** وهذا موقف أكثرُ حكمةً،

---

[31] هناك قسيم آخر للجمعانية محورها الروح الجمعية الأمة، لا المنفعة الجماعية، لكن مناقشة الجمعانية النفعية الجماعية كاف للتمثيل على تهافت شقيقها التوأم.

[32] هناك نظير للقدسية يمكن رؤيته في تقديس المُثُل لا النصوص والعقائد الدينية، كالذي عند المثالية المطلقة، لكن القدسية الدينية كافية على التمثيل على تهافت قدسية المُثل.

ذلك أن المقدَّس يَعلو على انحطاط أهواء النفس الفردية كما يرتقي على تحيزات الجماعة، فيُحرِّمُ على الفردِ ظلمَ أخيه كما يُحرِّمُ على الجماعة قهر الأبرياء. لكن ومع عُلوِّ المقدسات الأخلاقية والدينية على منافع الأفراد والجماعات فلا يمنع أن تنحطَّ هذه المقدساتُ بالأفهام الفردية الرديئة لمعتنقيها، أو أن تتلبس بأعرافهم الزمانية وكثير من منافعهم الجماعية، حتى لتصير هذه المقدسات قشرةً كاذبة تغطي مآربهم. واتخاذُ صكوك الغفران لدى بعض الظَلَمَةِ من المسيحيين أو العكوف على مداومة الصلوات والحج والعمرة لبعض المحتالين والفَسَدَةِ من المسلمين أمثلةٌ على جواز تعفن اعتناق المقدسات. وفساد التدين لا يقتصر على الحالات الفردية لنفاق الآخرين بالدين أو خداع الذات بمداومة الاحتيال وطلب الغفران، بل يظهر في تعفن المقدسات نفسها أحياناً، كأن تسوِّغ بعضُ التراثات الدينية أموراً شنيعة تجاوز النفاق الفردي. فالتسويغ الديني في الهندوسية لاضطهاد طائفة المنبوذين "الدالِت"،[33] أمرٌ في غاية الظلم والإسفاف. وحجة الهندوسية لذلك أن المنبوذين فئةٌ وجب معاملتهم على أنهم أدنى مراتب البشر، ذلك أن تناسخ الأرواح قذفهم لأداء عقوبة عن آثامٍ اقترفتها أرواحُهم في أزمنة سابقة قبل ميلادهم! وما أخبثها صياغةً توجبُ العذاب والمهانة على إنسان لذنب لم يقترفه بل اقترفته روحهُ المظنونة قبل ميلاده! ووقوع مقدسات الهندوسية في تلك الممارسة ليس بعيداً عن وقوع بعض مقدسات الأديان الإبراهيمية بالشناعات كقول الكاثوليكية بعصمة البابوات عبر تاريخهم الطويل أو قول بعض شيعة المسلمين بعصمة الأئمة الاثني عشر وقدسية الروايات الملفقة عنهم! الحاصل أن مسلك القيم الدينية المقدسة لا يمنع من خطئها لا فرداً ولا جماعةً كما يظهر في الممارسة التاريخية دون شك.

---

[33] فراس السواح، الله والكون والإنسان: نظرات في تاريخ الأفكار الدينية (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2016)، 211-212.

4.1.2. فإذا استيقَنَّا من كون المنافع الفردية والجماعية والقيم المقدسة مسالك غير معصومة قِيَميًّا في هداية أفرادها، **فهل يواجِه المرءُ مأزق الوجود بالاستنتاج من المبادئ العقلانية الكونية؟**[34] وفي هذا ملجأ حصين، ذلك أن المبادئ العقلية مُنزَّهةٌ عن الخضوع للمنافع أو التلوث بالخرافات. لكن أين نجدُ هذه المبادئ؟ جُلها في المنطق والرياضيات وهي مبادئ شديدة التجريد من مثل "الكل أكبر من الجزء"، وأن "الخطان المتوازيان لا يلتقيان على السطوح المستوية"، وأن "القياس البرهاني تلزم فيه النتيجة عن المقدمتين اللتين تنضوي فيها الصغرى في الكبرى". ومع أن هذه المبادئ يقوم على كثير منها صلاحُ السلوك الفردي والمجتمعي والديني، إلا أنها تعجز عن الإعانة على قدر آخر عظيم من تحديات الإنسان. فكيف للفرد المستعين بالمبادئ الكونية أن يدرك أن هذا الطعام الذي يقدمه هذا المطعم هاهنا خال من التسمم الغذائي؟ وكيف للمجتمع أن يدرك بواكير القرن العشرين أن حرق النفط سيؤدي بنا إلى التغيُر المناخي وارتفاع مناسيب البحار في قرن لاحق؟ المبادئ العقلانية الكونية جليَّةٌ ويعسر للبشر التنازع عليها، لكنها لا تجيب على كثير من الأسئلة المتعينة، وتعجز عن التحقُّق من السيرورات التجريبية، ولا تنقذ الغريق بحبل مادي حين اللزوم.

5.1.2. وما أعظَمُه مأزقاً للإنسان في أنه لا يفتأُ يعجز عن إنقاذ نفسه، بل لا يفتأ يعجز عن وجدان ذلك المنهج الهادي لإنقاذ نفسه، حتى وإن أخلص في البحث. فلا النافع ولا المُقدَّس ولا المبادئ العقلانية الكونية بكافية في مقارعة تحديات المعاش. **فهل العلوم التجريبية بالاستقراء هي الأجدى؟**[35] وفي هذا ملجأ شديد الثراء،

---

[34] من أجود ما ظهر بالعربية في شرح هذا المذهب هذا الكتاب: العقل، جيل جاستون جارنجي، ترجمة: محمود بن جماعة (تونس: دار محمد علي الحامي، 2004).

[35] من أوسع ما ظهر بالعربية في مناقشة هذا الباب كتاب: كارل بوبر، المشكلان الأساسيان في نظرية المعرفة، ترجمة: نجيب الحصادي (بيروت: جداول، 2021).

ذلك أن العلوم التجريبية تدلني ما الأطعمة السُمية، وما المُمْرِضة، وما الصحية؟ كما أنها تدل المجتمعات على السلوكات التلويثية والهدرية والضارة بالبيئة. لكن حتى في هذا الحصن الثري تظل العلوم التجريبية جواباً على الماضي وعلى ما تم اختباره والاكتواء بناره لا على المستجدات وعواقب المشاريع طويلة الأمد. فنحن قد عرفنا سُمِّيَّة الزرنيخ تاريخياً، لكننا ما كنا ندري بواكير القرن العشرين أن المواد المشعة مُسرطِنَة وقاتلة. ولك أن تَعجَبَ من قيام بعض المُروِّجين التجاريين بسقاية الناس بماء تم تعريضه للأشعة النووية توقُّعَاً لخصائص نافعةٍ،[36] فإذا بمن شربوه مُستَطبّين يموتون شرَّ ميتة. وكذا عرفنا تلويث حرق النفط فسعينا بإخلاص للانتقال للتوليد المستدام للكهرباء بمولدات السدود والأمواج البحرية والرياح، فإذا بجل المُولِدات تقوم على استخدام "معادن نادرة" في مغناطيساتها وهو ما ليس بمستدام! كيف يمكن توليد طاقة مستدامة من مُولدات غير مُستدامَة؟ العلوم التجريبية عاجزةٌ عن كشف المستقبل إلا في حيز ضيق من الأنماط المعهودة، كما أنها تعجز حتى عن الإخبار بدوام حال المجرَّب نفسه. فإرضاع الوليدِ من أمه مثلاً من أبسط المجرَّبات والمسلمات الغريزية عبر تاريخ البشرية، لا بل عبر تاريخ الثدييات، لكنَّ بعضَ المواليد يُولَدُ باستجابة مناعية خطيرة لحليب أمه حتى أذا رضع من أمه أمرضته الأم بحليبها.[37] فعجبي لهذه المفاجئات التجريبية حين يصير حنوُّ الأم على وليدها سُمَّاً مؤذياً! **لكأن**

---

[36] "The Lethal Legacy of Early 20th-Century Radiation Quackery," *Washington Post*, accessed May 28, 2022, https://www.washingtonpost.com/health/the-lethal-legacy-of-early-20th-century-radiation-quackery/2020/02/14/ed1fd724-37c9-11ea-bf30-ad313e4ec754_story.html.

[37] Daniel Munblit et al., "Human Milk and Allergic Diseases: An Unsolved Puzzle," *Nutrients* 9, no. 8 (August 17, 2017): 894, https://doi.org/10.3390/nu9080894.

الحياة تقول لمن يحياها اتبع العقلانية والعلوم المجرّبة أو لا تتبع، فإن عذابي إليك نافذ.

6.1.2. بإزاء هذه المخمصة، ليس أَصْدَقُ من العبارة القرآنية في تقريرها للمأزق البشري في الآية القائلة: "ووالِدٍ وما ولَدَ، لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في كَبَدٍ" [البلد: 4]، أي في شدةٍ ومعاناةٍ ونَصَبٍ. **فلا منافع الأفراد والجماعات، ولا المقدسات الموروثة، ولا المبادئ العقلانية الجلية، ولا العلوم التجريبية الثرية، بعاصمة للإنسان من الضلالة. فهل المنهج الجدلي هو المآل النهائي؟** والجدل كما يقدمه الفيلسوف الألماني هيغل بواكير القرن التاسع عشر هو صراعٌ بين الأضداد، يُفضي لتوليف صاعد بين المتقابلات، فيجاوز مشكلة الضدين بحل إبداعي ثالث مبتكر. لكن الحلَّ التوليفي هذا لا يلبثُ يقعُ في مأزق جديد فيولِّد ضداً جديداً بمثابة خطوة رابعة، حتى يظهر توليف إبداعي آخر مستجد يغير المشهد من جديد بمثابة خطوة خامسة، وهكذا دواليك.[38] في المنهجية الجدلية إدراك عميق، ذلك أنه بين التحيز للفردية والجماعية أعلاه حلولٌ وسطى تَظهَرُ فصلاً بين العام والخاص. وبين العقلانية والتجريبية توليفات تمارسها الفيزياء في ربطها بين الممارسات الإحصائية والتفريع عن القوانين الرياضياتية المجردة من خلال المنهج الفرضي الاستنتاجي. وكذا يحصل الجدل بين النصوص المقدسة والمعقولات لإنتاج تأويلات ومُصالَحَات ظهرت في علم الكلام للإسلام وفي اللاهوت للمسيحية وغيرهما.[39] وعليه يصير منهج الجدل أكثر هضماً لكل المناهج السابقة، وأكثر تواضعاً منها أيضاً لاعتناقه دوام السيرورة والتغيُّر. فهو لا يحكم على الظاهرة مُسبقاً ليقول بأن

---

[38] هيجل مؤلف عسير وصعب، لكنه حظي بمؤلف أنجليزي سَلس مهد أفكاره وحظي بمترجم عربي متمكن ها هنا: ولتر ستيس، فلسفة هيجل، المجلد الأول: المنطق وفلسفة الطبيعة، المجلد الثاني: فلسفة الروح، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام (بيروت، لبنان: دار التنوير، 2007).

[39] هاري أ. ولفسون، فلسفة المتكلمين، ترجمة: مصطفى لبيب عبد الغني (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005).

لها مبدأ عقلياً قبلياً أو نمطاً استقرائياً تجريبياً، ولا على القيم لتكون مقدسةً أو نافعةً، بل يأخذ خلاصة صراع المناهج بنحو لاحق وبعدي فيتابع تجلياتها وتقابلاتها أنَّى كانت ثم يشرع بالتعامل مع نتائجها بالتوليف. وإذا كان هارون الرشيد في خطابه للغيمة قد قال "أمطري حيثُ شِئْتِ، فسيأتيني خَراجُكِ"، فإنَّ المفكر الجدلي يحتذي حذوَهُ قائلاً: "يا غيوم الأدلَّةِ أمطري حيث شِئْتِ، فبالجدلِ ستأتيني هدايَتُكِ". ولا شك أن هذا المنهج التقييمي السادس، إذا مورس بشمول ودقة وأناةٍ، سيكون من أسلم المناهج، لأنه يستجمع عناصر القوة في كل ما سبق. ومع ذلك تظل فيه آفةٌ أنه لا ينفعنا فيما لو كان التقابل بين ثلاثة خيارات أو عشرة، فأي وسط بين هذه المجاميع؟ وهناك آفة أخرى، فلنقل مثلاً أن الجدل يروم رفع النزاع بين الرجل والمرأة بتوليف وسط أو بديل ما يعلو على صراعهما، لكن هذا الصراع قد يصل بالمحبة والحكمة للحل في جيل ما، لكن بمجرد وفاة ذينك الزوجين يتجدد صراع الرجل والمرأة في الجيل الثاني والثالث دواليك. وعليه فالجدل قد يرتد لتقابلاته الأصلية دون أن يكون هناك جدل صاعد حتمي كل مرة، بمعنى أن المتقابلات تتجدد فلا تذوب بالتوليف. فلا بد إذن من منهج يتجاوز قصور الجدل في عجزه عن استيعاب الكثرة وفي محاولته للصعود وتجاوز الأضداد بالتوليف.

7.1.2. في هذا السياق تبزغ رؤية ذكية، فما الذي يا ترى يجمع بين منافع الأفراد المتعارضة ومنفعة الجماعة الضرورية، أولا يكون **حكمةً** عميقةً؟ هذه الحكمة أوليست متواشجة مع **الفقه** الذي يراقب نيات المتدينين ويدقق في موافقتها لمقاصد الشارع أو نيات النفاق والمخاتلة؟ وهذا الفقه بدوره أوليس متواشجا مع **الفهم** الذكي الذي يقتنص المبدأ العقلي الكوني، وهو ذاته الذي يلاحظ الأنماط الراسخة في عالم الأعيان فيصدر التعميمات التجريبية؟ وما بين حكمة وفقه وفهم أولا يفتقر صاحب الجدل لكل هذه الملكات لتوليف الوسط الإبداعي بين الضدين؟ هذه السؤالات المتسلسلة

تفضي لكون **المنهجية البشرية حِكمةً منفعيةً أو فقهاً أخلاقياً أو فهماً عقلانياً أو استقراءً عِلمياً أو جدلاً إبداعياً إنما تفتقر دوماً للقوة الإبداعية للحدس**. والحدس يطابق ما يسميه المتدينون بالوحي الذي يُلقى في روع الأنبياء، أو الإلهام الذي يكرَم به الأولياء أو العبقرية التي تأتي للشعراء والمخترعين. ولا مفر من الإقرار بالحدس، إذ الحكمة الجامعة بين المنافع تقوم على حدس، والفقه الديني مفتقر للحدس، والفهم العقلاني كله حدس في حدس. وخذ الحالة الأخيرة حين اكتشف فيثاغورس مبرهنته في مساحة المربع على وتر المثلث القائم الزاوية. لا دليل في التجربة ولا في التراث ولا المنفعة أن المبرهنة على ما هي عليه. لا بد إذن أنها من الحدس، إذ خلف كل مقدمة مقدمة قبلها تسندها؟ وبعد كل استقراء استقراء أكبر منه يوسعه؟ وعليه فلا مهرب من التفكر إلا بالحدس. لكن المشكلة العويصة هاهنا أننا بالحدس لا نملك طريقاً لإعادة توليد الحدس أو اقتفاء أثر الحداسين. ففيثاغورس حدس فرضيته من المعقولات الرياضياتية المجردة فكيف بي أنا أحدس مُبرهنةً مثله؟ وأينشتاين حدس من فيزياء العوالم التجريبية نظريَّته النسبية، فكيف نجعل الباحثين يقتفون أثره لإنتاج نظرية مثلها؟ لا غرابة أن الحدس أشبه بالسحر الصادق غير القابل للتكرار. صحيح أن أصحاب الكرامات يشددون على التربية الروحية بإخلاص النية وبكثرة المذاكرة وصفاء الذهن لكن لا ضمانة في كل ذلك. فكما لا يلزم عن الإخلاص ولا المذاكرة حصول الإلهام، فإن ظهور الحدس لا يلزم عن التشرب بالمعقولات والتدبر في عوالم التجربة. الحاصل أن الحق يُبلَغُ بالحدس، لكننا لا نملك طريقاً لهذا الحدس سوى تعزيز حظوظنا بأن نحدس بإخلاص القصد ودوام المجاهدة الفكرية. فإذا سلمنا بهذا يظل لنا أن نطالب: فهل ثمة طريق واضح لتعزيز المنهجية الحدسية للهداية التي لا تني تفتقر إليها كل الطرائق الأخرى؟

8.1.2. يا لحسرة الإنسان مع الهداية، ويا لمأزقه مع التفلسف والتوسل بمناهج التقييم! **نعم فليس هناك حل مسبق، ولا مبدأ قبلي، ولا مسلك معصوم يُبلِّغُ الإنسان الصواب ويحمله على الفضيلة، ذلك أن الكَبَدَ سيَلُفُّهُ من داخله وخارجه، كما من فوقه وتحته.** نعم سيصيبُ الكَبَدُ الجاهل والعالم، والفتى والعجوز، والمؤمن والكافر، ذلك أنه قدرُ الوجود الذي لا مهرب منه. فكل ما هناك تسديد ومقاربة، مِصداقاً للمأثور عن نبي الأمة: "فسدِّدُوا وقاربوا وأبشروا".[40] أي يا بني آدم حاوِلوا إصابة الرَميَّة والاقتراب منها والأمل باقتناصها، إذ الصواب والحقيقة كالطريدة سرعان ما تهرب وتفلت من صيادها وهيهات يظفر بها إلا الصياد الكدود المحظوظ، ولهنيهات قصيرة! وإزاء هذه المَعمَعةِ الفلسفية المُستَقصِيَة لمناهج التقييم والقرار البشري، يسعفنا الفيلسوف الألماني-الأمريكي نيكولاس رشر[41] بأعجوبة فلسفية توضح طريق التسديد والمقاربة في

---

[40] البخاري، "فسدِّدوا وقاربوا"، الموسوعة الحديثية, accessed May 28, 2022, https://dorar.net/hadith.

[41] نيكولاس رشر ألماني (من مواليد سنة 1928 ولا يزال على رأس عمله حتى كتابة هذه السطور). هاجر أهله لأمريكا وهو ابن عشر سنوات قُبيل الحرب العالمية الثانية. والرجل من نوادر الفلسفة المعاصرة ذلك أنه يمارس الفلسفة المنظوماتية للتزاوج الجرماني-الأنجلوفوني. ولقد أصدر أكثر من 170 كتاباً غطت جُلَّ حقول الفلسفة المعاصرة. بزَّ في اختراعه نمطاً من التفلسف الخماسي أي ذاك الذي يدمج بين عقلانية لايبنتز التكاملية، ومثالية كانط، وعملانية بيرس، لكن ضمن معطيات المنطق الحديث والفلسفة التحليلية، ونتائج البحث العلمي. من أهم كتبه في تقديري: (1- المثالية على مستوى المفاهيم، 2- الاستدلال الفلسفي: بحث في منهجية التفلسف، 3- صراع المنظومات: بحث في أسس التنوع الفلسفي ولوازمه، 4- الإنصاف: النظرية والممارسة للعدالة التوزيعية، 5- التعددية: ضد مطالب الإجماع، 6- التفلسف الإنسي: المِذوَاقية والتأمل في البحث الفلسفي، 7- المنطق المعرفي: مسح لمنطق المعرفة، 8- الرفاه: الموضوع الاجتماعي من منظور فلسفي، 9- العَمَلانية المنهجية: مقاربة منظوماتية نظرية لنظرية المعرفة، 10- المعاضل المنطقية: أصولها ونطاقاتها وحلولها، 11- التنبؤ بالمستقبل: مدخل إلى نظرية التوقع، 12- حدود العلم، 13- دراسات في فلسفة القرن العشرين، 14- نظرية للإمكان: توجه بنائي ومفاهيمي للأعيان والعوالم الممكنة). ونظرا لعمله رئيساً لتحرير الدورية الأمريكية للفلسفة لأربعين سنة أتيحت له فرصةُ الاطلاع على كثير مما نُشِر أو رفض

حياة المكابدة. وأصطلح على تعريب اسم منهجِهِ بمنهج العناقيد الاستئلافية.[42] فدونكم استيعابي لمذهبه العتيد.

2.2. كيف نهتدي بمنهجية العناقيد الاستئلافية؟

اعلم أنه لا ينصلح حال الآدمي لا بفردانية أو جَمعانية، ولا استنتاجية أو استقرائية، ولا قُدسانية أو حَدْسَانية أو جدلية. لكن ينصلح بعض حاله بتنسيق أمثل لما يتيحه جِماع السياق المعرفي من المنهجيات. أو قل لا تقريب للنجاة إلا بتأليف أنسب بين كل المسالك المنهجية، أي السَبْع المِثالي. يسمي رشر هذا المنهج بلفظه عنقود أبوريا، (aporia) وهي لفظةٌ يونانية يُقصَدُ بها لغةً ما يستعصي على العقل جراء الحيرة والتناقض والاختلاط. ويذهب هو لتعريفها بأنها "جملةٌ من الدعاوى

نشره فلسفياً في العالم الأمريكي. وتقديراً لنبوغه الفلسفي حظيَ برياسة مركز فلسفة العلم بجامعة بيتسبرغ، والجمعية الفلسفية الكاثوليكية الأمريكية، وجمعية ليبنتز الأمريكية، والجمعية الميتافيزيقية الأمريكية، وجمعية تشالرز بيرس. تأثُراً بابن عمه الأكبر سناً (المستشرق الألماني المتحول للإسلام عثمان رشر، اسمه الأصلي Oskar Rescher) تخصصَ رشر في الفلسفة العربية بواكير مسيرته فأصدر أعملاً متعلقة بالفلسفة الإسلامية نُقِلَ منها إلى العربية اثنان: "تطور المنطق العربي" و"دراسات في تاريخ المنطق العربي" ولحقه ترجمة عمل ثالث في موضع ذي صلة "جالينوس والقياس". من المحير جداً، بل المقلق عدم الترجمة لهذه القامة المنظوماتية الجبارة في العالم العربي سوى ثلاثة كتب فرعية من شجرته الباسقة! هذا جرد بمؤلفاته مصنفةً حسب الموضوع: https://sites.pitt.edu/~rescher/ وفي أحد سِيَرِهِ الذاتية المتعددة، يروي أن له سنداً متصلاً بهيغل، إذ سمع الحكمة على همبل عن رايشنباخ عن كاسرير عن ناتروب عن لاس عن ترندلينبيرغ عن هيغل:

Nicholas Rescher, *Autobiography*, 2nd ed. (Walter de Gruyter, 2013), 54–55.

[42] Nicholas Rescher, *Philosophical Reasoning: A Study in the Methodology of Philosophizing* (Malden, MA: Blackwell, 2001), 93.

المُمكِنَةِ مُنفَرِدَةً، المُمْتَنِعَةِ مُجْتَمِعَةً"[43] بحيث يستدعي الاتساقُ أن يُحذَفَ المتناقض منها أو يُخفَّفَ من مصادمته لغيره بوجه من وجوه التخصيص والتأويل. وحتى نُسهِّل أمر هذا النقاش الفلسفي المعقد فلنضرب مثلاً عيانياً بسيطاً يبتعد عن التشويش المخالط للاستقطابات الدينية أو الآيديولوجية، ولا يحتاج خلفيةً عِلمية أو منطقية متخصصة. هذا المثال يظهر في السؤال الحياتي والقيمي المهم: "ما أفضلُ سيارة تجارية مَدينيةٍ في العالم؟".[44] **والجواب بحسب المنهجية الاستئلافية يأتي على شكل عنقود متراكم من الإجابات حول ذات الموضوع، ويتم تحليله إلى جملة من الدعاوى المُمكنةِ مُنفَرِدَةً، المُمْتَنِعَةِ مُجْتَمِعَةً،** وهذه أربع من أشهرها:

1- أفضل سيارة في العالم هي أكثرها رفاهيةً.
2- أفضل سيارة في العالم هي أسرعُهَا.
3- أفضل سيارة في العالم هي أكثرُها أماناً.
4- أفضل سيارة في العالم هي أيسَرُها ابتياعاً.

---

[43] النص الأصلي لرشر مُثبتٌ بالإنجليزية أدناه، فلاحظ اقتدار العربية في الترجمة أعلاه على اقتناص جملة رشر بعدد أقل من عدد كلماته هو، بينما تكون الترجمة التوصيلية الشائعة لدى العرب اليوم ركيكةً وتزيد من عدد الكلمات بقولها الأبوريا: "هي مجموعة من الادعاءات المعقولةِ بشكل فردي ولكنها غير المتسقة بشكل جماعي".

Aporetic cluster is "a group of contentions that are individually plausible but collectively inconsistent", Rescher, 93.

[44] القيد "تجارية" أضيف لإخراج السيارات التي تُصنَعُ بشكل فردي أو محدود فلا تكون متاحةً للشراء لعموم الجمهور، ولذا فلا عِبرة في التطرق إليها. كما أن القيد "مدينية" قد وضع لإخراج السيارات غير التقليدية ذات الدفع الصاروخي أو التي تجري على البر والبحر وتقدر على الطيران المجنَّح وهي منتجات نادرة ومحدودة جداً وليست من مألوف الحياة المدينية.

ولا يخفى على القارئ أن السؤال "ما أفضلُ سيارة تجارية مَدينيةٍ في العالم" لا تجيب عليه منفعتي بسيارة فخمة، ولا منفعة عموم الجماعة في سيارة رخيصة، لأن في المنفعتين كثيراً من التضاد. ولا يوجد مبدأ عقلي نستنبط منه الجواب من كتب المنطق والرياضيات. أما استقراء كل سيارات العالم فلن يفضي إلا لاستظهار قوائم طويلة من الأنواع والخصائص يمتنع من مطالعتها التوصل للقرار حول السيارة الأفضل. أما طريق الجدل فلا نفع منه هاهنا لانعدام ضدين ثنائيين يمكن التوصل لتوليف بينهما من بين مئات الخيارات! والحدس سيتضارب بين حدوس الحداسين وما أكثرهم. التصور الأسلم أن السؤال أعلاه يطرحُ عنقوداً من أربع إجابات أو قيم قصوى يمكن للعقل أن يُعجَبَ بها منفردةً في ذاتها، لكن لا يمكن أن يقبل هذه الإجابات مجتمعةً لأن بعضها يصادم أو يناقض البعض الآخر، وهذا تفصيل للتناقضات.

1.2.2. فهل السيارة البريطانية الفخمة "الرولز رويس فانتُم" هي أفضل سيارة في عالم اليوم؟ كيف لا وهي السيارة الملوكية للإمبراطورية البريطانية، والقدرة على اقتنائها يرفع صاحبها إلى مستوى من الأبهة والامتياز لا نظير له بين الناس. وكيف لا وهي من أكثر السيارات قابليَّةً للاستجابة لأذواق من يبتاعها، أَمِنْ جهة اختيار طلائها من بين أربعة وأربعين ألف توليفةٍ لونية![45] أم من جهة القدرة على إدخال الذهب والجواهر في بطانة أبوابها وسقفها، أم من جهة عزلها الصوتي المذهل عن إزعاج المركبات حواليها أو عن اهتزاز تشققات الطرق التي تخوضها. وزد على ذلك توافر كل ما نألفه من أجهزة التكييف والموسيقى، أو ما لا نألفه من وجود ثلاجة المرطبات

[45] Rolls-Royce Motor Cars Pasadena, "What Are the Rolls-Royce Colors?," Rolls-Royce Motor Cars Pasadena, January 3, 2020, https://www.rollsroycepasadena.com/rolls-royce-colors/.

وتدفئة أو تبريد حرارة المقاعد فضلاً عن المساج فيها! لكن هذه الأبهة والرفاه لا يأتيان إلا بسعر يفوق نصف المليون دولار لطراز سنة 2021.[46] ويمكن أن يجاوز ذلك السعر بالطبع فيما لو طلب الزبون قطعاً معينة من جواهر الألماس لتزيين داخليتها! لكن كيف يمكن لأفضل سيارة في العالم أن تكون حكراً على الملوك والأباطرة وأعتى الأغنياء؟ لا بد أنها سيارة صُنِعَتْ لكي لا تكون لعموم البشر، ولا حتى للمعشار من أغنيائهم، بل لعدد قليل جداً منهم. وهذا يجعل الدعوى الأولى مصادمةً للدعوى الرابعة ذلك أن نصف مليون دولار مبلغ لا يُمكِّنُ جلَّ البشر من ابتياعها، أي إنها ليست الأسهل ابتياعاً.

2.2.2. فهل أسرع سيارة في العالم المُسماة "تواترا" هي أفضل سيارة في عالم اليوم؟

[47] كيف لا وسرعتها تصل 532 كلم في الساعة،[48] ما يفوق أداء سيارة الرولز رويس أعلاه بل ويفوق سعرها سعر ثلاث سيارات منها مجتمعةً! لكن سيارةً بمثل هذه السرعة الفائقة لا يمكن قيادتها إلا في حلبات السِباق المغلقة. كما أن تجربة هذه

---

[46] "New 2021 Rolls-Royce Phantom Extended Wheelbase Prices | Kelley Blue Book," accessed March 1, 2022, https://www.kbb.com/rolls-royce/phantom/2021/extended-wheelbase/.

[47] الحديث عن أسرع سيارة ليس أمراً يتغير حسب العام الواحد بل قد يتغير حسب الشهر الواحد، ذلك أن شركات السيارات تنتظر إصدار سيارات المنافسين وإعلانها عن سرعتها التي قد تصل 300 كلم/ساعة مثلا، فتسارع الشركة الأخرى للقيام بتعديل معين على محرك سيارتها، وتخفيف وزنها، وتغيير انسيابية هيكلها، أو ما شابه لتحقق سرعة 303 كلم/ساعة، فتفسد على تلك الشركة الأولى إعلانها بالأسبقية ليؤول التفوق للشركة الثانية. ثم لا تلبث شركة ثالثة التربص بكلتيهما للقيام بكسر منجز الشركتين بزيادة كذا وكذا من الكيلومترات. وهكذا يستمر العمل التنافسي بين تلك الشركات فيظل الرقم متغيراً من شهر لآخر. ونظراً لهذا التفاوت يجوز الأخذ بإحصائية سنوية كالتي تصدرها مجلة السرعة القصوى في الهامش الموالي.

[48] Robert Moore, "The 10 Fastest Cars In The World Ranked @ Top Speed," Top Speed, June 25, 2021, https://www.topspeed.com/cars/guides/the-10-fastest-cars-in-the-world-ranked/.

السرعات على الطرقات العادية سيفضي لاصطدام طاحن أو خروج السيارة عن الطرق التي لا تستوعب السرعات الجنونية. زِدْ على ما سبق أن هذه السيارة لا تصلح للقيادة اليومية صباح مساء في حر وقر، ذلك أنها تحتاج لصيانة دورية كثيرة لدوزنة آلاتها المعقدة. يظهر أن الدعوى الثانية لأسرع سيارة في العالم تصادم الدعوى الثالثة لأكثر السيارات أماناً، فضلاً عن مصادمة الدعوى الرابعة لأكثر السيارات يُسراً للابتياع من جهة رخص سعرها.

3.2.2. في هذه الحال فهل آمَنُ سيارةٍ، أي "مارودر"،[49] هي أفضل سيارة في العالم؟ كيف لا وهي بوزن خمسة أطنان ومضادة لرصاص الرشاشات العسكرية، وتقاوم انفجاراً بقوة 14 كلغم من المادة المتفجرة، وتقدر على النجاة من جُل السيارات المدنية التي قد تصدمها. كما أن هذه المركبةَ لا يُعيقها رملٌ ولا ثلج، ولا تأبَهُ أن تصعد فوق جلمود أو تهبط في منحدرٍ سحيق. لكن سعر هذه المركبة شديدة الأمن كما تطلب الدعوى الثالثة حوالي نصف مليون من الدولارات، وهو سعر لا يقدر عليه معظم السكان ما يصادم الدعوى الرابعة. ووزن هذه السيارة الذي يوازي وزن خمس سيارات مجتمعَةً يجعلها أبطأ من جُل السيارات في الطريق ما يصادم الدعوى الثانية المُطالِبة بالسرعة.

4.2.2. بناء على كل ما سبق فهل أكثرُ سيارةٍ رُخصاً وميسورية في العالم، الصينية "جيانغونان تي تي"،[50] بأقل من 2500 دولار، هي أفضل سيارة في العالم؟

---

[49] Army Technology, "Paramount Marauder Mine Protected Vehicle," Army Technology, October 15, 2020, https://www.army-technology.com/projects/paramountmarauder/.

[50] Tycho De Feijter, "This Is The Cheapest Car In China," *Forbes*, May 19, 2016, https://www.forbes.com/sites/tychodefeijter/2016/05/19/this-is-the-cheapest-car-in-china/?sh=5321b3632fe0.

وهذا سعر سهل الابتياع لقطاع عريض من ساكنة الكوكب. لكن هذه المركبة متقادمة في تقنيتها، بل مع حداثة سنِّها إلا أنها هَرمةٌ لتجهيزها بتقنية سيارات عام 1984، بطيئة لا تبلغ سرعة مئة كيلومتر، ولا تتوافر على أي من متطلبات الرفاهية المعاصرة، ولا الحد المقبول من شروط الأمان، فتصادم الدعاوى الأولى والثانية والثالثة معاً، فكيف لها وإن كانت رخيصةً ميسورة لعموم الناس أن تكون لها الأفضلية؟

5.2.2. جلي من هذه الإجابات أن **كل دعوى من الدعاوى الأربع تتخذ قيمةً لا بد وأن تتصادم مع قيمة أخرى بنحو ذاتي.** فقيمة السرعة الفائقة مصادمةٌ للأمان الشديد كما نرى في عالم السيارات، وقيمة الرفاهية المذهلة مناقضةٌ للرخص الشديد سوقياً، والرخص بدوره مهدرٌ لكل القيم سرعةً وأمناً ورفاهيةً. فما العمل؟ أو قل أننا في هذا المثال أمام عنقود تناقضي صريح، أي إزاء جملة من الدعاوى المُمكِنَةِ مُنفَرِدَةً، المُمْتَنِعَةِ مُجْتَمِعَةً، والقرار البشري الأمثل يستدعي الاتساق بأن يُحذَفَ المتناقض منها أو يُخفَّفَ من مصادمته لغيره بوجه من الوجوه. وعليه، ألا يجوز أن نصل لقيمة وسطى تجمع من الرفاهية قدراً لا يكسر ظهور المشترين، ومن الأمان ما يكفي ألا يُحوِّلَ السيارةَ لدبابة عسكرية، ومن السرعة ما لا ينتج سيارة صاروخيةً بل ما يكفي للبقاء في حدود الطرقات المدينية بكفاءة، وأن تظل مع كل ذلك في سعر ميسور يقدر عليه أبناء الطبقة الوسطى على الأقل؟ هذا السؤال التشابكي التنسيقي بين مقاصد قصوى متعارضة هو الحل الاستئلافي للعنقود التناقضي، وهو الذي انهمك فيه عقل المهندسين اليابانيين لسنوات عندما توصلوا إلى الجواب بإخراجهم للبشرية رائعتهم الهوندا أكورد.

هذه السيارة من بين كل طرازات العالم هي الأكثر مبيعاً في أمريكا لأربعين سنة منذ إصدارها سنة 1976، بمبيعات قاربت 12.7 مليون مركبة.[51] والعلة في هذا التميُّز

---

[51] Prnewswire, "Honda Celebrates Four Decades of Accord - America's Best-Selling Car Over the Past 40 Years," accessed March 1, 2022,

أن هذه السيارة قد طلبت التأليف بين خصائص متعارضة لما في الأسواق، فهي أوسع من السيارة الإيطالية الصغيرة الضيقة آنذاك، لكنها ليست بحجم الأمريكية الكبيرة. وهي سريعة دون أن تكون سيارة سباق ألمانية، وفيها من الرفاهية ما يفوق أقرانها لكن دون أن تصل رتبة سيارات الملوك الإنجليزية، وفيها مستجدات الأمان دون أن تكون مضادةً للرصاص ولا بمتانة السيارات السويدية آنذاك، وكل ذلك في سعر معقول اليوم (يبدأ من 26 ألف دولار). هذا السعر اليوم هو في متناوَلِ دخول أهل الطبقة الوسطى في أمريكا الذين تفوق رواتبهم السنوية ضعف هذا السعر. قد يقول القائل هذه نتيجة معقولة أو بدهية ولا تشي بإبداع لا نظير له. والصواب أن في جواب هوندا على السؤال إبداعاً فائقاً لأنه لا المصانع الألمانية ولا الأمريكية ولا الإيطالية ولا السويدية – التي كانت أكثر خبرةً ومالاً وشهرةً – كانت قادرةً على تقديم مثل ذلك الجواب آنذاك، ولا حتى منافسة ذلك المُنتَج بعد ظهوره وانكشاف ميزاته للعلن لأربعين سنة! وإذا كانت تلك الشركات – بكل جيوشها من المهندسين والمصممين والمخططين – عاجزةً عن التوصل لمثل جواب هوندا على ذلك السؤال فلا بد أنه جواب استئلافي إبداعي نادر.

3.2. بعض لوازم المنهجية الاستئلافية

قد يقول القائل أوليست القدرة على تقديم جواب تشابكي تنسيقي للقيم المتعارضة أو المتناقضة في الوجود البشري هو ما نسميه في ثقافتنا العربية الإسلامية بالوسطية؟ نعم تتشابه الوسطية مع هذا النمط من التفكير جزئياً، لكن العناقيد الاستئلافية أعقد وأكثر نسبيةً لسببين. الأول: أن الحالة التوليفية الوسطى لا تليث تتغير مع التفاوت في القيم المتعارضة. فأن تسبقَ شركةُ المرسيدس في إنتاج الوسادة

---

https://www.prnewswire.com/news-releases/honda-celebrates-four-decades-of-accord--americas-best-selling-car-over-the-past-40-years-300292512.html.

الهوائية كواقٍ للصدمات سنة 1981 يضع الهوندا في تحدٍّ جديد. كيف يمكن أن تقلد هذه التقنية؟ وكيف يمكن أن يكون إضافتها إلى السيارة غير رافع لتكلفتها إلى الحد الذي لا تعود فيه السيارة رخيصة الابتياع؟ وهذه الوسادة صارت متاحةً لهوندا أكورد سنة 1987،[52] من الناحية التصنيعية وحسب، لكن جعل هذه الميزة متاحة إلزامياً لكل الطرازات أخذ خمس سنوات إضافية،[53] انتظاراً لهبوط سعر الوسادة الهوائية مع التقدم التقني العالمي. هذا يعني أن الوسط بين قيمتي الأمان والرخص لا يزال يتغير عبر السنوات؛ فوسط بواكير الثمانينات ليس هو وسط بواكير التسعينات، وكلاهما ليس وسط الألفية حين صارت الوسادات الهوائية الجانبية علاوة على الأمامية لازمة في كل الطرازات.[54] وعليه فوسطية عناقيد الاستئلاف تتغير على خلاف فكرة الوسطية الثابتة في ثقافتنا العربية الإسلامية. والاختلاف الآخر عن الوسطية التراثية هو: نسبية الحالة الوسطى بحيث لا يقع توسطها بين قيمتين وحسب كما يمارس الجدل، بل بين عدد لا يحصى من القيم المَرعيَّة، نحو التوسط بين السرعة والأمان أولاً، والتوسط بين الرفاهية والميسورية ثانياً، والتوسط بين جماليات التصاميم المألوفة والتصاميم الثورية ثالثاً، والتوسط بين استدخال التقنيات الإلكترونية المستجدة والحفاظ على بساطة التعامل اليومي مع السيارة رابعاً، والتوسط بين مُتاحيَّة البنى التحتية للتزود

---

[52] "Honda Global | The Airbag System / 1987," accessed March 4, 2022, https://global.honda/heritage/episodes/1987theairbagsystem.html.

[53] "Safety History: The Honda Accord Sedan - Part 1, 1976-1993," *Safety History* (blog), accessed March 4, 2022, http://carsafetydance.blogspot.com/2013/04/safety-history-honda-accord-sedan-part.html.

[54] "2004 Honda Accord - Beginning with 2005 Models, Side Airbags Were Made Standard.," accessed March 4, 2022, https://www.iihs.org/ratings/vehicle/honda/accord-4-door-sedan/2004.

بالوقود وثورية المحركات الكهربائية أو الهيدروجنية أو الهجينة خامساً. والتوسط سادساً بين كل تلك الوسطيات الخمس! الحاصل أن عناقيد الاستئلاف وسطية لكنها متعددة معقدة، ووسطية لكنها نسبية متغيرة. وفي مثالنا السابق فعدم وجود الوسادة الهوائية بواكير الثمانينات قرار استئلافي أمثل. وإضافتها في التسعينات قرار استئلافي أمثل أيضاً. وزيادة الوسائد الهوائية الجانبية في بواكير الألفية قرار استئلافي أمثل ثالث. ولا عجب أن كل قرار من هذه القرارات ليس مطابقاً للآخر، ومع ذلك يظل هو الأمثل في عنقوده الاستئلافي المخصوص في زمانه ومكانه.

هذه السيرورات الاجتهادية تجعل عملية التوسيط الأمثل قراراً متغيراً ودائم الانزياح، بل قراراً لاهثاً وراء تغير المعطيات، ومستجدات التقنية، وأعراف الأمان، ومعايير الجمال، ومُتاحية البنى التحتية. إن عناقيد الاستئلاف لا تني تظل في استئلاف دائم على عرقها النباتي الدقيق، لأن ثمار العنقود تكبر وتتغير وتتفاوت ما يجعل الاستئلاف عملاً متغيراً دائماً حسب تغير القيمة المثلى المتاحة. وما يزيد في تفريق هذه المنهجية عن المشهور للوسطية الإسلامية أن منهجية عناقيد الاستئلاف تعترف بشرعية القيم المتناقضة المتعارضة دون القول بإلغائها مع ثبوت تطرفها. وعليه فالمنهجية الاستئلافية لا تتعسف مثل الجدل؛ من جهة ضرورةَ الوصول لحل توليفي صاعد، ولا مثل الوسطية في ثقافتنا العربية بالقول بأن الوسط هو الأصل، بل إن عناقيد الاستئلاف تقر بأن التناقضات هي الأصل وتحاول فهمها وقبولها كما هي دون تعسف حذفها، لكنها تجتهد في التخفيف من المأزق الذي تطرحه هذه التناقضات. منهج عناقيد الاستئلاف يقر بجواز إنتاج أفخم سيارة في العالم لأننا منه نتعلم جماليات دبغ الجلود وتناسق الألوان واستدخال مبتكرات الرفاهية؛ فلولا دخول مكيفات الهواء على السيارات الباهظة الثمن أولاً ما دخلت من بعد على الرخيصة. والاستئلاف يقر بجواز إنتاج أسرع سيارة في العالم، على خصائص نادرة، لأن تطور

محركات السيارات العادية يستلهم من سيارات السباق بعد عقد أو اثنين من الدربة عليها. والاستئلاف يقر بجواز أن تكون آمَنُ سيارة مدرَّعةً للجيوش وكبار القادة والشخصيات لنتعلم إمكانية تمتين السيارات العادية بما يتاح. والاستئلاف يقر بكون السيارة الأرخص خاليةً من كل ما سبق لجعلها متاحةً في بعض السياقات كالتنقل بين المزارع دون الدخول في الطريق العام. العنقود عنقودٌ لأنه يقر بوجود حبات العنب المختلفة أولاً قبل الوصول للحالة الاستئلافية المرجوة. وفي سياق حديثنا عن المأزق البشري مع الفكر والسلوك، يتجلى للقارئ أن منهج عناقيد الاستئلاف هو أكمل المناهج[55] في العمل البشري لأنه ينبني على استخدام جُل المناهج الجزئية واستثمار طاقاتها القصوى مع الوعي بحدود كل منهج وقصوره، ودوام تقويم هذه المناهج

---

[55] قد يذهب البعض أن منهج الهرمنوطيقا أو التأويلية عند الفلاسفة القاربين يشابه منهج عناقيد الاستئلاف في شموله، إذ تأخذ الهرمنوطيقا بالعناصر المنطقية من فهم نسيج الاستدلال، والعناصر النفسانية من شعور المؤلف أو القارئ، والعناصر التاريخية من سياق الكتابةِ والتلقي، فتدمج الثلاثة معا في مزيج جامع ليقدم المعنى الأمثل للنص، أو المعنى الأشمل لفضاء معين من نصوص ثقافة عصر ما. وفي هذا جانب من الصحة. إلا أن منهج عناقيد الاستئلاف يقوم بالوظائف ذاتها للتأويلية وأكثر دون الوقوع في وجوه القصور الكثيرة للهرمنوطيقا. من هذه الوجوه أن عناقيد الاستئلاف لا ترى العالم جملة من نصوص ترقب المعنى، 1- إذ القوانين الرياضياتية ليست نصوصاً نختلف على معناها بل حُدِّدَ معناها سلفاً باصطلاح واضعيها، 2- والظواهر الطبيعية ليست لغاتٍ بشريةً مخترَعَة بل معطيات قائمةً بذاتها، فهمها القارئ أم عجز عن فهمها، 3- وبعض مظاهر الطبيعة كحركة الغازات عشوائية لا معنى أو قصدية لها، 4- وجل سيرورات الطبيعة وسلوك الجموع البشرية لا نفسية لها لكي تتشابه مع الإنسان في تحليل نفسيتها، 5- والاستئلاف فيه قدر من الانضباط التحليلي والمنهجي لا يلاحظ في مؤلفات التأويليين وطريقة استخلاصهم لنظرياتهم. والأهم من هذه الفروقات الخمسة أن منهجية عناقيد الاستئلاف لا تضع نفسها معارضاً للتفكير المنطقي أو المنهج العلمي أو القيود الثقافية والأخلاقية، بل محافظاً على مكتسباتها وبانيةً عليها. وفوق كل ذلك يظل صاحب عناقيد الاستئلاف الألماني-الأمريكي رشر أوضح في عرضه لمذهبه من صاحب الهرمنوطيقا الألماني غاديمر وأكثر موسوعية من خَلَفِهِ الفرنسي ريكور في الإلمام بشجرة العلوم، وأكثر عبقرية منهما في اقتراح حلول للإشكالات الفلسفية.

وإخضاعها للمراجعة.[56] لكأني برشر يعيد صياغة فرضية لاتناهي السؤال والجواب عند كانط بالقول: كُلُّ مُحاولةٍ استئلافيةٍ تولِّدُ مشكلات لاحقة ما تستدعي استئلافاً تالياً، وهكذا دواليك، ما يُظهِرُ عجزَ كل المحاولاتِ المنهجية عن بلوغ تمام الأمثل.[57] ويمكن تلخيص هذه المنهجية الاستئلافية في الفقرة الموالية.

4.2. الخطوات الرئيسة للمنهجية الاستئلافية:

1. لِتَستقرِئ من المقاصد والوسائل المُتصِلَة باستِشكالِكَ أشمَلَها (لاحظ ما أوردناه في حالة السيارة المُثلى من شمول عدد من قيم الرفاه والسرعة والأمان والميسورية).[58]

---

[56] لعل القارئ العارف بالفلسفة اليونانية القديمة قد انتبه إلى أن هذه المنهجية تستلهم فكرة توسّط الفضيلة بين قيمتين متطرفتين عند أرسطو . حيث يرى أرسطو الشجاعةَ فضيلةً لتوسطها بين التهور والجبن، والكرمَ فضيلةً لتوسطه بين التبذير والتقتير. ماجد فخري، أرسطوطاليس: المعلم الأول (بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكية، 1958)، 113.

[57] نيكولاس رشر لا يكلُّ ولا يملُّ من اقتباس هذه الجملة عن كانط وشرحها والاستدلال بها في أكثر من ثمانيةٍ من كتبه التي فاقت مئة وسبعين كتاباً! والشرح أعلاه بسطٌ للعبارة الأصلية المنسوبة لكانط إذ تقول: "كل جواب مبناهُ الخبرةُ العمليَّةُ يُفضي لسؤالٍ مستجدٍ، وهو ما سيستدعِيه جوابُ هذا المُستَجِدِّ بالمِثل، ما يُظهِرُ عجزَ كلِّ أنماطِ التفسير المادي [العَمَلي] عن مرضاةِ العقل [المُتَخَيَّل]." ولمن أراد تذوق النص الانجليزي المنقول عن ألمانية كانط فهذا هو:

"Every answer given on principles of experience begets a fresh question, which likewise requires its answer and thereby clearly shows the insufficiency of all physical modes of explanation to satisfy reason", Immanuel Kant, *Kant's Prolegomena to Any Future Metaphysics*, Editor: Paul Carus (London, UK: Open Court Publishing Company, 1902), 122.

[58] نزولاً عند شمول القيم المطلوبة في السيارة المثلى، كان ينبغي إضافة قيمة الديمومية ضد الأعطال، والاستدامية ضد الوقود غير المستدام، والجمالية ضد القباحة، والاتصال الحوسبي ضد الانقطاع عن الشبكة. لكننا عزفنا عن إضافة كل هذه القيم حتى لا نربك القارئ بمثال طويل جداً. لكن الحق أن هذه القيم داخلة في ذات العنقود الاستئلافي وتزيده سعةً وتعقيداً.

2. لِتَستنبِطْ من المقاصد أكثر النتائج صِحةً (أي لتبحث عن أنسب الأعيان المُستَنتَجَةِ عن ذلك المبدأ بحيث تكون أسرع سيارة في العالم هي كذلك حقاً لا تقريباً أو تَوَهُّماً، وكذا ابحث عن الأكثر أماناً والأكثر رخصاً وهكذا).
3. لِتَضَع نتائج الغايات المُتَقَابِلة في صراع جدلي (أي لتكشف عن التقابلات بين حالة السيارة الأسرع والسيارة الأرخص، وهكذا).
4. لتكن واعياً بعناصر استقرائك واستنباطك وجدالك ولتصرِّحْ بها للباحثين، ولتمثِّل عليها بأجود الأمثلة.
5. لتعيِّنْ مركزاً أو نطاقاً يتوسط نتائج الصراع الجدلي المتعدد الأطراف (كما مثلنا بسيارة الهوندا أكورد).
6. لا بد للعِرق أو الغُصَين الناظم لحبَّات العنقود الاستئلافي أن يكون وسطياً، أي أن يُهمل قصداً هذه المُثل الرفيعة، أي أن يخفف عَمداً من تلك الغايات القصوى. وعليه فلا تستحي من التقصير في أداء المثاليات ذلك أن الاستئلاف يؤدي ما هو أمثلُ منها (في حالة سيارة هوندا قصدَ المصمم ألا تكون أكثر السيارات أمناً، ولا أكثرها رفاهيةً، ولا أكثرها سرعةً، ولا يُنقص هذا الإغفالُ من مثالية السيارة في الاستئلاف النهائي).
7. لِتُدَاوِم الإقرار بالمعطيات المتعارضة، ولتواصل كمال الاستقراء، والاستنباط، والجدل، والعدول عن الغايات القصوى لما هو أمثل منها، بتغيير المركز الاستئلافي مع الزمن بحسبان العناصر الخمس جميعاً (وهو ما نجح في تصَميمه

مهندسو سيارة التويوتا كامري أخيراً فأزاحت الهوندا أكورد عن عرش الأكثر مبيعاً في أمريكا في السنوات الثلاث الأخيرة).[59]

8. لتتربص بما يصنعه المجتهدون الآخرون عساهم يستقرئون ما هو أشمل، ويستنبطون ما هو أصح، ويجادلون ما هو أبدع، فيستألفون ما هو آلَفُ، فتنهضَ للاستئلافِ على استئلافهم ما هو آلَفُ (وهذا أمر مفتوح على الاجتهاد. ولعل المهندسين في سيارة تسلا الكهربائية هم المهمومون بهذا الأفق الممكن اليوم أكثر من غيرهم).

نعي الآن كيف أن الجواب على السؤال "ما أفضلُ سيارة تجارية مدينيةٍ في العالم؟" هو جواب معقد ونادر ودائم التغير بدوام طلب الكمال الذي يتوسط بين قيم متعارضةٍ متعددةٍ. فإن كان هذا هو حال عنقود استئلافي واحد صغير غرضه إنتاج سيارة مُثلى، فما بالك بعناقيد استئلافية أشد تعقيداً تروم تصور أفضل نظام مديني للإسكان، أو أفضل نظام غذائي، أو أفضل نظام ترفيهي للمعاش؟ لا بل ما بالك بالعنقود الاستئلافي الذي يؤلف بين كل العناقيد،[60] أي العنقود الاستئلافي الذي يجابه أسئلة معاش الإنسان كله بمثل هذه الأسئلة؟

---

[59] Karan Rawat, "Once Again the Toyota Camry Was the Best-Selling Sedan in America for 2021," *Hot Cars*, January 24, 2022, https://www.hotcars.com/once-again-toyota-camry-was-best-selling-sedan-in-2021-in-america/.

[60] على خلاف ما نرى من الانفجار المعرفي في جل الحقول والتكاثر التأليفي في جل الموضوعات لا تزال المعرفة البشرية حالياً في فقر شديد في موضوع تنظيم فروع المعرفة وتنسيقها وأثر تفاعل بعضها ببعض. إذ لا تكاد تجد المؤسسات الأكاديمية والتخصصات الجامعية منشغلةً بسؤال عنقود كل العناقيد أو منظومة كل المنظومات. وعليه تجد العلوم الصورية أولاً (من منطق ورياضيات وحوسبة) متصلةً بعلوم الطبيعيات ثانياً (من فيزياء وكيمياء وأحياء وتطبيقاتها الهندسية). لكن كليهما غير متواشجَيْنِ عضوياً بالعلوم الاجتماعية ثالثاً (علم النفس والاقتصاد والسياسة والإناسة والاجتماع والتاريخ)، وكل منفصل عن علوم الانسانيات رابعاً (الآداب والأخلاق

1- أَيُّ أنظمة الاقتصاد هي المُثلى، الرأسمالية المطلقة أم الاشتراكية المركزية، أم الرأسمالية-الاشتراكية؟ وبأي قدر من الجمع بين هذا وذاك؟
2- أَيُّ أنظمة السياسة هي المُثلى، الحاكمية الشعبية المباشرة، أم حاكمية النخبة الراشدة، أم حاكمية الكفاءة،[61] أم الحكومة العالمية المُستَدامة؟
3- أي أنظمة الثقافة هي المثلى، الطاعة لتقاليد الجماعة، أم الإبداعية الفردية، أم الخضوع للقيادة، أم الحراك التقدمي الهادئ الجامع بين كل ذلك؟

والآيدلوجيا والأديان والفنون، أي علوم الثقافة). ولعل الأرجنتيني الكندي ماريو بنجي (1919-2020) (يُلفظ اسمه في موطنه بالغين العربية وإمالة الياء أي بُنغِيه) هو الوحيد الذي نجح في هذا الدمج، بُعيد الحرب العالمية الثانية في الجواب على هذا السؤال. ولقد ظهر نسقه حول منظومة كل المنظومات في تسعة مجلدات (من ثمانية أجزاء) تشمل مجلدين لفلسفة المعنى والتأويل، ومجلدين في الكينونة، ومجلدين في المعرفة والمنهجية، ومجلدين في العلوم والمجتمع، ومجلد عن الأخلاق. ولقد أضاف لها مجلداً عاشراً على نحو مستقل في فلسفة السياسة. وماكان لبنغيه أن يقوم بهذا المشروع العُشاري لولا أنه قد أفرد كتاباً خاصا في فلسفة كل من هذه الحقول الدقيقة إفراداً مستقلاً: "الفيزياء" و"الأحياء" و"الطب" و"النفس" و"الدماغ" و"العِلم الطبيعي" و"الاجتماع" و"تقييم الفلسفة"، ولخَّص كل ذلك في قاموس خاص سماه "معجماً فلسفياً". والغرض من هذا الاستطراد بيان الفارق بين المنهج المنظوماتي لبنغيه (systemism) والمنهج الاستئلافي لرشر ذلك أن الأول على مستوى الكينونة والحقول الأساسية للعلوم بينما الثاني على مستوى التقييم والعمل ومجابهة التطبيقات الفرعية للعلوم. ولا تعارض بين خلاصات المنهجين من حيث المقدمات والنتائج، لكن منهج رشر يَسهُل شرحه في مساحة أوجز بينما يظِل منهج بنغيه محتاجاً لمساحة أكبر وتحصيل بعض الاختصاصات من لدن القارئ. ولقد خصصتُ أربعة فصول من كتابي أدناه لشرح منظومة بنغيه وبعض لوازمها على الفلسفة العربية الإسلامية:

Modernity and the Ideals of Arab-Islamic and Western-Scientific Philosophy: The Worldviews of Mario Bunge and Taha Abd al-Rahman.

[61] متابعةً للمنهجية الاستئلافية تُفرِدُ هذه المقالة جواباً وجيزاً على الأسئلة السياسية المذكورة في هذه المقالة: أحمد زهاء الدين عبيدات، "نصيحة فوكوياما للأمّة العربيّة: حاكمية الأمّة، واستقلاليّة الإداريين، ومقاصِدِيَّةُ التشريع"، المستقبل العربي، العدد 497، يوليو، 2020، الصفحات: 27-47.

والجواب على هذه الأسئلة يُضمِرُ في ثناياه أسئلة أخرى أصغر، وتناقضات أخرى أعمق، ترتبط بتناقضات أخرى أعمق فأعمق تدفع إلى التفكر في عناقيد استئلافية كبرى تلف مأزق الإنسان الوجودي بكليته. لكن ما صلة كل هذا بنقد الحداثة أو استلهامها؟ المتتبع لهذا الدرس المنهجي التقييمي يدرك أن الجواب عن سؤال الحداثة لن تحسمه مصلحتي الفردية، ولا مصلحة جماعتي، ولا الأحكام الفقهية لديني، ولا المقدمات العقلية المجردة، ولا النتائج التجريبية المتكاثرة، ولا الثنائيات الجدلية التوليفية، ولا الحدوس الإبداعية. الجواب المناسب عن الحداثة جواب استئلافي بالضرورة يحذف من بعض المثل ويخفف ويجمع من بعضها الآخر ذلك أن **الاستئلاف مكابدة وصراع لتغيُّرٍ وتحوُّلٍ وتسديد ومقاربة**. فلا جرمَ أن الجواب عن صراع الإنسان مع وجوده جواب أثقل من الجبال! ولا عجب أن إدراك العناقيد الاستئلافية لهذا الجواب الأمثلِ أمرٌ عسير ونادر، لأن الكمال في مكابدة الوجود مطلبٌ متناقض في حد ذاته، وهو ما يعجز نقاد الحداثة عن إدراكه!

بناء على هذا الكشف المنهجي فلننظر كيف جابهت بعض الشعوب عبر التاريخ الانتقادات السبعة الواردة على الحداثة. ولن نقف قبيل ظهور الحداثة ما بين القرن الخامس عشر إلى العشرين وحسب، بل سنزيد في بيان مجابهة الشعوب الأقدم أسئلة التحديث الأول للاستيطان والاستقرار ما بين الألفية العاشرة إلى الألفية الخامسة قبل زماننا وصولاً لعصرنا هذا. وهنا سنكشف القصور المعرفي العظيم والعجز التقييمي الكبير لدى النقاد الذين لا يرون استلهاماً أو قدوةً في ثورات الحداثة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

3. القسم الثالث: فقه فضائل الحداثة بإدراك نظائر التحديث في سياقات تَعمَّت على الناقدين

لقد قدَّمنا بإيجاز في القسم الأول للمعنى التوصيفي للحداثة بوصفها سيرورات الثورات الإحدى عشرة للتاريخ الغربي التي عُمِّمَت على سطح الكوكب، فأثَّرت تأثيراً متفاوتاً في البشر ومجتمعاتهم طوعاً أو كُرهاً، قصداً أو بغير قصد، إصلاحاً أو إفساداً. إلا أن التطور البشري أطول من تاريخ الغرب نفسه، ذلك أن الحداثة الغربية لا تشكل مساحةً كبيرة من تاريخ الإنسانية. وإذا أخذنا بالرقم التقريبي 2.8[62] من ملايين السنين لظهور الرئيسيات من البشر وأسلاف البشر المستخدمين للأدوات الحجرية، وإذا علمنا أن بواكير ظهور الزراعة الاستيطانية متساوقٌ مع نهاية العصر الجليدي الأخير قرابة 11700 عام خَلَتْ،[63] علمنا أن تاريخ البشر بعد بزوغ العصر الزراعي أقلُّ من 1% من مجمل التاريخ (لا بل قرابة أربعة بالألف من مجمل تاريخ المسيرة البشرية). وعلى ذات المِسطرة التطورية تكون الحداثة ابتداءً من نضجها في العصر الصناعي-الديموقراطي بواكير القرن التاسع عشر لا تشكل 2% من التاريخ منذ العصر الزراعي، وبالكاد تشكل 7 أجزاء من المئة ألف جزء من تاريخ التطور الإنساني منذ العصر الحجري. كأننا نقول أن الحداثة هي نحو من عشرِ ثوان من يوم الإنسانية الطويل ومكابداته الشقية! أمام هذا المعيار الزماني ينبغي لأي مستلهم أو ناقد للحداثة أن ينتبه

---

[62] "Homo may have originated as early as about 2.8 mya" in Ian Tattersall, "Homo Sapiens," in *Encyclopedia Britannica*, October 18, 2022, https://www.britannica.com/topic/Homo-sapiens.

[63] Richard Pittioni and Marija Gimbutas, "Stone Age: Definition, Tools, Periods, Peoples, Art, & Facts," in *Encyclopedia Britannica*, March 9, 2022, https://www.britannica.com/event/Stone-Age.

لتصاغر الظاهرة الحداثية الغربية أمام السيرورة البشرية الطويلة. وكل من يتكلم بالنيابة عن الفطرة البشرية حاصراً إياها في تجربة ثقافية معينة فهو مُغفِل هذا المسار الطويل لا محالة، أو قل هو ذاهِلٌ ببضعة ثوانٍ عن يوم البشرية الطويل.

هذه الفترة السابقة على الحداثة الغربيّة، أي فترة العصر الزراعي، امتدت في مناطق محدودة من الكوكب لقرابة عشر ألفيات. وفترة العصر الزراعي، وإن تصاغرت مقارنة بطول عمر الجنس البشري، إلا أنها حاسمة جداً في تحولاتها، وتحتاج لوقفة من كل عربي أو غربي يظن أن الله خلق الدنيا في أيامه وأيام أبيه وجده لا غير! التحول العملاق لبزوغ العصر الزراعي متساوقٌ مع نهاية العصر الجليدي الأخير قرابة 11700 عام خَلَتْ ولأسباب معينة، إذ أخذت بعض قبائل البشر بالخروج عن عاداتها المضطردة في الصيد واللقط ودوام التنقل. لكن ما الداعي لفتح معترك التحولات البشرية على مشارف العصر الحجري؟ الداعي أن نقاد الحداثة في مقارنتهم للحداثة تتم دوماً بأوضاع وثقافات من العصور الزراعية السلطانية في العصور الوسطى وما قبل العصور الوسطى للديانة الإسلامية أو المسيحية في الألف أو الألفين الفائتين. لكن أصحاب هذه المقارنات عاجزون عن إدراك أن تاريخ البشرية أقدم من العصور الزراعية المدنية بآلاف السنين. لا بل إن نقاد الحداثة في نقدهم الشمولي للمضار السبعة (إنتاج اللحوم، وسموميات الثورة الزراعية، ونكد الثورة المدينية، ومخاطر الثورة العلمية التقنية، وتألُّه الثورة الرأسمالية، وشكوكية الثورة العقلانية النقدية، وإرهابية الثورة الحربية الغربية) إنما يطلقون هذه الانتقادات، دون قصد، على أمثولتهم، أي الحضارة الزراعية السلطانية المُتديِّنَة نفسها، إذ الحداثة الصناعية هي البنت الشرعية والاستمرارية الطبيعية لما قبل الحداثة. هذه الحقيقة لاستمرارية ولا انقطاعية الحداثة الغربية عن جذورها في الآماد التاريخية الطويلة، إذا أضيفت

للمنهجية الاستئلافية، فإنهما معاً ستقومان بقلب الانتقادات السبعة أعلاه كما سَأُدلِّل الآن بالتفصيل:

1.3. **الانقلاب الأول، في أنّ منافع الثورة الزراعية المُعاصرة واجبةٌ، وأن هذه الثورة تطلب غايات وتعاند أخرى، والحكمة بالاستئلاف أن تُقلل مضارها،** ولذلك بيان. اعلم أن البشرية طوال تاريخها من صيد الحيوانات، ولقط الثمار، وسكن الكهوف والأشجار ما كانت تعتمد في معاشها على الزراعة ولا كانت تعرف المحاصيل والحقول وانتظار الحصاد،[64] إذ حصل التحول إلى الزراعة لا لعبقرية مخصوصة، ولا لموضة ثقافية وقعت لقبائل العصر الحجري، ولا لطفرة في مورثات بعض البشر، بل لانحسار الدائرة الجليدية من وسط أوروبا حيث فرنسا، ووسط آسيا حيث شمال القوقاز، ووسط أمريكا الشمالية حيث نيويورك حالياً، لأقصى شمال الأرض، حيث الدائرة القطبية اليوم حوالي 11700 سنة خَلَتْ. أفضى هذا التغير بدوره لتحول المناطق المطيرة الخضراء والأنهار الجارية في الصحراء الإفريقية الكبرى وجزيرة العرب وإيران ووسط آسيا إلى مناطق جافة، ما أجدب تلك المناطق من وفرة ثمارها وصيدها. هذا الجفاف الماحق نتاجٌ للتحولات المناخية الكوكبية، ولقد دفع ببعض سكان الهلال الخصيب في القوس الرابط بين البصرة فالأناضول شمالاً حتى الأردن جنوباً إلى اتخاذ زراعة الحبوب أسلوباً لإنتاج الغذاء. لم تكن الضغوط البيئية عامةً لكل البشرية آنذاك، إذ إن وفرة الصيد البحري لدى الإسكيمو من سكان ألاسكا مثلاً، ووفرة الصيد وثمار الأدغال في الأمازون

---

[64] والدليل على ذلك فقدان آثار لما زرعه البشر من القمح والأرز والبقوليات والجذوريات فيما قبل العصور الزراعية ووجدان أصولها البرية على طبيعة وحال مختلفين جداً لتلك النباتات. وما يعزز هذا الجزم فقدانُ آثار للحقول والتجمعات السكانية الكثيفة المشابهة للقرى أو المدن في العصور الحجرية المتطاولة زمناً وتكاثرها تكاثراً كبيراً بعد ثورة العصر الزراعي.

وجزائر بابوا نيو غيني وما شابهها جعلت نمط الإنسان الصائد اللاقط مجزياً ومناسباً لبيئته ومعاشه لحدود القرن العشرين، بل ولأيامنا هذه!

وزراعة الحبوب وما تجاور معها من بقوليات وخضروات وفواكه في الهلال الخصيب أفضت لتأمين الغذاء دون حاجة للتعرض لمشاق الترحال الدائم، ومخاطر الارتهان لتوافر الطرائد من عدمها، والمصادمة مع الوحوش المفترسة كل حين، والتضارب مع قبائل سبقت لمناطق الوفرة من المياه والثمار والطرائد. لكن هذا الاضطرار إلى الزراعة، على نفعه، أفضى لمضار كثيرة غير متوقعة ولا مُتخيَّلة. أولها يظهر في حرق الأشجار واقتلاع الأعشاب الراسخة التي تمنع انجراف التربة، وفي إضعاف خصوبة الأرض بإنهاكها بالزراعة الفصلية أو السنوية للمحاصيل، بل وفي تعزيز تملح التربة؛ إذ تتملح الأرض المروية نهرياً في بعض الظروف بحيث تنقلب غير صالحة لإنبات الزرع بالجملة كما حصل لأراضي الحضارة السومرية آخر أيام سومر مما أدى لزوال خصوبتها.[65] وثاني المضار أن الاستيطان في تجمعات زراعية ذات حقول ومواسم وإجراءات للري صار يشترط نظاماً للتوافق والضبط الاجتماعي على الري بين أصحاب الحقول وبين القرى، وهذا على خلاف الحرية الكبرى للقبائل العائلية الصغيرة للعصر الحجري. ضبط القرى والمستوطنات الزراعية صار يفرضه توافقٌ قبائلي، أو شيخ القرية، أو سادة المجاميع القروية، ما يعني ظهور السلطة والطبقية والتراتب الاجتماعي بين البشر. والاستدلال على الطبقية ظاهر في مقارنة التساوي بين قبور الشعوب الصائدة اللاقطة والتفاوت بين قبور الشعوب الزَارِعَة. وثالث مضار الزراعة أن كمية السعرات الحرارية التي أخذ فلاح المستوطنات الزراعية يجنيها مع حصول الضريبة على منتجاته من أسياده قَلَّلَ من كمية الغذاء الوفيرة التي يحصلها نظيره الإنسان الصائد من أسماك الأنهار وغزلان البراري وثمار الأدغال. وهو ما يتجلى في ضعف عظام

---

[65] Ronald Wright, *A Short History of Progress* (New York: Carroll & Graf, 2005), 78.

وأسنان وهياكل جثث المزارعين مقارنةً بجثث أبناء الشعوب الصائدة.[66] ورابع المضار وأخطرها أن سهولة التخزين والنقل والمعالجة لمحاصيل الحبوب والبقول والجذوريات أغرى بتمام الاتكال عليها بالمخبوزات وما شابه، مما زاد من احتماليات تعرض أصحاب النمط الزراعي للقحط المناخي والآفات الزراعية التي تتلف المحاصيل، وعندئذ صارت الجماعات الزراعية مهددةً بالمجاعات والفناء إذا عمت الآفات، ذلك أن الزراعة هي نمط تغذيتها الغالب. الحاصل أن الإنسان باستحداثه لثورته الزراعية في الهلال الخصيب قد أضر بأرضه،[67] وجوّع نفسه، وأخضع عائلته لعبودية ملاك الأراضي أو سيادة مشايخ القرى، لا بل وهددها بفناء المجاعات العارضة. ولا يبعُد أن بعضاً من النابهين من الصائدين اللاقطين من جيران أهل الهلال الخصيب تفطن لورطة الزراعيين تلك، فنقدوهم على حداثتهم الزراعية تلك، ونظموا فيها أبياتاً هاجية أو قصصاً أسطورية مأساوية. ولعل بعض الزراعيين تبعوهم في انتقاداتهم تلك فارتدوا على أعقابهم صائدين لاقطين. لكن وما حيلة المزارع السومري آنذاك إلا أن يقبل بكل هذه المضار الزراعية، أو يسارع للفناء بانعدام الصيد واللقط؟ لا بد أن الزراعة كانت نزولاً عند ضروراتٍ استوجبت العمل بها. أو قل إن الزراعة كانت أكبر قرار استئلافي فلسفي اِتخذه الإنسان أواخر العصر الحجري. وفي سياق تناول نقادِ الحداثة من المشايخ المعاصرين نجد أن القرآن يفخر بالظاهرة الزراعية كما في قوله:

---

[66] University of Cambridge, "Hunter-Gatherer Past Shows Our Fragile Bones Result from Inactivity since Invention of Farming," ScienceDaily, accessed September 6, 2022, https://www.sciencedaily.com/releases/2014/12/141222165033.htm.

[67] من حظ المزارعين الصينين والمصريين أن أنهارهم كانت تحمل من الغريان الطيني القادم من الجبال البعيدة ما يغذي الزراعة المستمرة بالمُخصبات دون إنهاك الأرض الزراعية. وهذا على خلاف الزراعات جنوب العراق التي اشتد تملحها ثم تصحرها ما أفضى لانهيار حضارة سومر. أنظر:
Ronald Wright, *A Short History of Progress*, 104.

"وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ" [يس: 33- 34].

ومن كان رافضاً للثورة الزراعية الآلية الكيميائية الحديثة فحسبه أن يعلم أن الزراعة العضوية نفسها بدعةٌ تاريخية خطيرة أواخر العصر الحجري. وإذا كانت الزراعة سيرورة أخذت تظهر على التتابع بعد الهلال الخصيب في مصر والصين وأمريكا الجنوبية والوسطى،[68] فما ذلك إلا لأن الإنسان صار يُسائِلُ القيم المتعارضة لمعاشه، وصار يفكر في العنقود الاستئلافي لمنافع الزراعة ومضارها، فصار يسدد ويقارب ليواصل بقاءه. وما على نقاد الثورة الزراعية المعاصرة إلا أن يشددوا على نفي خبثها بنفي احتكار البذور، والضرب على يد الشركات الاحتكارية، وتعزيز الزراعات المحلية، ووضع المحاصيل الأنسب في أنظمة الري المناسبة، ومنع استخدام المواد المسرطنة، والتشديد على الزراعة العضوية، وخلط الأراضي الزراعية بالأسمدة العضوية وتسويرها بالغابات، وتعليم الأجيال المتمدنة محبة الضرب في التراب والتلذذ بالثمار الطازجة، فنحافظ على مكتسبات الإنتاج الزراعي بتضخيم خيراتها دون الرجوع لمحددات العصور الوسطى. أما المطالبة بالرجوع إلى الزراعة غير التقانية على الأسلوب القروسطي فهذا يقتضي ثمناً باهظاً جداً ألا وهو أن نُخصص غالبية السكان للإنتاج الغذائي لإطعام البشرية وهو الذي سيسلب القوة العاملة من المجالات الإدارية والصناعية والعلمية والتعليمية والفنية الأخرى، فضلاً عن ترك الحاجة للقراءة والكتابة لأن الفلاحة والزراعة لن تتطلبا عناء التعلم أصلاً. الثورة الزراعية المعاصرة حررت الإنسانية للاشتغال بالمعارف والصنائع والفنون والإدارات بغير فلاحةٍ أو رعي. ما لا

---

[68] Jared M. Diamond, *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies* (New York: W. W. Norton & Company, 1999), 99.

يُدركه الناهون عن الاقتداء بالحداثة أن الوقت الذي يمضونه في قراءة أتباع فوكو وكُتاب مدرسة فرانكفورت والنقد الأدبي "الكولونيالي" وأمثالهم إنما جاء بعد فكّ أميتهم بأنظمة التعليم العمومية، وبعد وصلهم بأنظمة الإعلام والاتصال لإدراك مجريات العالم. وإلا فلينظر هؤلاء من هم أجدادهم أو أجداد أجدادهم وسيجدونهم ممسكين بأذناب البقر حراثينَ للحقول أو سائرين وراء الماشيةِ رعاةً أو ممسكين بأداة من أدوات الحرفيين الكثيرة! وذاك ليس بالخيار الذي سيقبلونه. التعرض بالنفي لثورة الإنتاج الزراعية الحديثة، كالتعرض بالقدح للثورة الزراعية القديمة، كلاهما إفساد، وكلا الظاهرتين بالحكمة الاستئلافية ينصلح.

2.3. **الانقلاب الثاني، في أن منافع الاستهلاك اللحومي المتوازن ضرورية، وأن هذا الاستهلاك يطلب غايات ويناقض أخرى، والأصوب بالاستئلاف أن تُقلّلَ مفاسِدُهُ،** ولذلك تفصيل. اِعلم أن استهجان أكل اللحم المعاصر يفترض أن البشرية كانت تتغذى على النباتات أو المزروعات منذ الأزل، لكن الصواب أن أسلاف الإنسان الحالي منذ خروجه من إفريقيا وانتشاره في الكوكب كان صائداً لاقطاً، بمعنى أن المجرى الهضمي للكائن البشري قد تطوَّرت أنسجته وأحماضه المعوية ليهضم اللحوم ويشتهيها ويسير في طلبها الأيام. لا بل يذهب بعض العلماء إلى أن التحول لتغذية لحومية مكثفة مطبوخة هي التي دفعت بالكتلة الدماغية الدُهنية بالتضخم فوق حجم الكتلة الدماغية لأسلاف الإنسان.[69] هكذا صارت البروتينات والدهون من طبخ لحوم الصيد البري والمائي والطيوري أحد الروافع الكبرى لتطور الدماغ البشري نفسه، حتى لكأن جوهرنا ليس هو الإنسان العاقل بل الإنسان الطابخ، تلك الميزة التي عجزت عنها كل

---

[69] Richard Wrangham, *Catching Fire: How Cooking Made Us Human* (New York, N.Y.: Basic Books, 2009), 106.

الحيوانات. ومع حصول هذه المعطيات فلم يستأنس الإنسان الحيوانات للتغذية المنظمة منذ الأزل، ولا حتى قبيل الزراعة، بل حصل الاستئناس بواكير الزراعة أو بعدها بقرون، على ما يورد المؤرخ الكوكبي مكنيل في كتابه البديع، في هذا الجدول في العامود الرابع.[70]

الجدول (1-2) تدجين الحيوانات والنباتات

السنة والتاريخ	المكان	النباتات الأساسية	الحيوانات الأساسية
غير موثوق	جنوب شرق آسيا	القلقاس، البام، قصب السكر، جوز الهند، الحمضيات، الأرز	الخنازير، الدجاج
بين 11000 و4000 سنة خلت	جنوب غرب آسيا	الشعير، القمح، العدس	الماعز، الأغنام، الماشية، الخنازير، الحمير، الإبل، الخيل
بين 9000 و6300 سنة خلت	الصين	جنوب الصين: الأرز شمال الصين: الدخن، فول الصويا	الخنازير، الدجاج، جاموس الماء
بين 6000 و4000 سنة خلت	المكسيك الأوسط	القرع، الذرة، الفاصوليا	لا شيء
بين 5000 و4000 سنة خلت	أمريكا الجنوبية	السهول: المنيهوت (*)، البطاطا المرتفعات: البطاطس، الكينوا	السهول: لا شيء المرتفعات: اللاما، الألبكة، خنازير غينيا
بين 5000 و3000 سنة خلت	أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى	السرغوم، الدخن، الأرز	الماشية

(*) المنيهوت manioc أو cassava نبات شجري استوائي وشبه استوائي يستخرج من جذوره نشاء معدّ ويؤكل كالبطاطس، موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية. والبطاطا sweet potato هو ذلك النبات العشبي الذي يسمى أيضا البطاطا الحلوة أو السكرية. والكينوا quinoa نوع من الحبوب صالح لتأكل كالحبوب وأوراق خضراء. موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية. والسرغوم sorghum نبات كالقصب يستخرج من بعض أنواعه [illegible] عصير سكري ويستخدم عللا للحيوانات، فضلا عن استخدامات أخرى. والبام yam نبات استوائي تحتوي درناته على كمية كبيرة من النشاء وبعض أنواعه [illegible] في الجنس من مناطق العالم (المترجم).

وقد يكون بعضُ ما في هذا الجدول صادماً للقارئ العربي. فمحبة الخيل ورعاية الإبل وتربية المواشي بدعةٌ حادثة من بدع التاريخ البشري وليست عادةً أصيلة من عوائد

[70] جون روبرت مكنيل ووليام هاردي مكنيل، الشبكة الإنسانية: نظرة محلقة على التاريخ العالمي، ترجمة: مصطفى قاسم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018)، 49.

سكان جزيرة العرب أو الحقائق الخالدة للجنس البشري. التأخر في استئناس الحيوان في تاريخ البشرية الطويل كان إما لانشغال الإنسان بوفرةِ الصيد حوالَيه أو لانعدام ما يقبل التدجين،[71] من مثل الحيوانات الضخمة كالزرافات، أو المتوحشة كفرس النهر، أو المفترسة كالضباع، أو السامة كبعض الضفادع، أو غير المُجدية كالسناجب. لكن هذا الاضطرار لاستئناس الحيوان للحمه، ومنتجاته اللبنية، وجلوده، وعظامه، وقرونه، وأسنانه، وأصوافه وأوباره، فضلاً عن منافع ركوبه وحمله وجرِّه، أفضى لمضار كثيرة. أولها يظهر في بزوغ أوبئة ما كانت لتتفجر لولا تساكن الإنسان مع الحيوان والتعايش اللصيق رعايةً له ومخافةَ هروبه أو تعرضه للسرقة. من هذه الأوبئة "الجدري والحصبة والإنفلونزا"[72] وكلها أمراض لم تضرب الإنسان بذات الشاكلة قبيل استئناسه للحيوان. ثاني المضار أن مستأنسي بعض الحيوانات النادرة صاروا يستَعلُونَ على من لا يملكها أو من لا يعرف استئناسها. فركاب الأفيال صاروا يغزون أهل الجِمال، وأهل الأحصنة صاروا يتسمَّون بالفرسان ويُغِيرونَ على ركاب الحمير أو المقاتلين المشاة ويفرون على نمط العَادِيات صُبحاً، وأهل الجمال صاروا يحملون من التجارات والأثقال مسافاتٍ عظيمةً ما يعجز عنه أي حيوان آخر في البلاد القاحلة. أو قل صارت فضائل الركوب على بعض البشر مضارَّ على سواهم. وثالث الآفات مشابهٌ لما حصل لاتخاذ الزراعة من قحط أو أوبئة تصيب الحيوانات خصاصة، فتهلك القطعان بتلك الأوبئة المخصوصة فتُفضي لمجاعة أصحابها المعتمدين عليها حصراً.

---

[71] انظر المناقشة البديعة حول تدجين الحيوانات البرية من الفصل التاسع وكيف أن الغزال كان ولا يزال من أعسر الحيوانات على التدجين رغم كثرة المحاولات! ولقد صدر الكتاب بالعربية ولم أقف على جودة الترجمة. أسلحة، جراثيم، وفولاذ: مصائر المجتمعات البشرية، تأليف: جارد دايموند، ترجمة: مازن حماد (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2007).

Diamond, *Guns, Germs, and Steel*, 174.

[72] جون روبرت مكنيل ووليام هاردي مكنيل، الشبكة الإنسانية، 64.

نستنتج من ذلك أن الإنسان بثورته الاستئناسية للحيوان، إنما عرَّض نفسه للوباء الحيواني،[73] وأخضَعَ نفسه لعبودية الفرسان أو سيادة أصحاب الحيوانات القادرة، لا بل وهدَّد مجتمعه بالمجاعة إذا فتكت الأمراض العارضة بالحيوان. لكن وأي حيلة لدى مُستأنس الحيوان بعيد العصر الزراعي إلا أن يقبل بكل هذه المضار المُحدَثَةِ أو يسارع للفناء بانحسار طرائد الصيد وفقدان الألبان والبيض والجلود والأصواف والمركوب والقدرة على الجر والحرث. بإزاء هذا الخيار يفخر القرآن بنعمة الحيوانات المستأنَسة كما في قوله "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" [النحل :5]. ومن كان رافضاً لثورة الإنتاج الحيواني المعاصرة فحسبه أن يعلم أن استئناس الحيوان هو نفسه بدعة بشرية مستحدثة قبلتها الشعوبُ الزراعية مضطرةً وحاولت تجنب مضارها قدر الإمكان. وإذا كان استئناس الحيوان سيرورة أخذت تظهر على التتابع في الحضارات الزراعية الكبرى فما ذلك إلا لأن الإنسان صار يجابِه الصراع الجدلي للبراءة من الأمراض الحيوانية المعدية مقابلِ مُساكَنَة الحيوانات، وصار يجابه خطر غزو الفرسان مقابل فقدان قدرة الأحصنة على الحمل والجر، أي أنه ولّد عنقوداً استئلافياً لمنافع الحيوانات المستأنسة من مضارها، فصار يسدد ويقارب ليجابه تحديات البقاء.

وبالمثل فما على نقاد ثورة الإنتاج الحيواني الحديثة إلا أن يشددوا على نفي خَبَثِها بنفي قهر الحيوان أو تعذيبه في المزارع، وحسن تغذيته وتطبيبه، ومنع استخدام المواد المسرطنة في تربيته، وضبط حمية الإنسان المتوازنة بتقسيم وجبته الأساس لأربعة أرباع متساوية من اللحم والنشويات والخضروات الورقية والفواكه، والتشديد على تربية اللحوم البيضاء أكثر من الحمراء، وتنبيه صنف حساس من البشر إلى ترك اللحوم لما تحدثه في شراييهم، فضلاً عن منع الهدر الغذائي في البيوت والأسواق حتى

---

[73] جون روبرت مكنيل ووليام هاردي مكنيل، الشبكة الإنسانية، 64.

لا تتحول تربية الحيوان وذبحه هدراً للموارد الطبيعية. التعرض بالدحض لثورة الإنتاج الحيواني الحديثة، كالتعرض بالقدح لثورة استئناس الحيوان القديم، كلاهما إفساد وكلاهما بالحكمة الاستئلافية يتعدل.

3.3. **الانقلاب الثالث، في أن مصالح التمدن المتوازن لا مفرَّ منها، وأن التمدن يطلب غايات ويعاند أخرى، والأعدلُ بالاستئلاف أن تُقلَّلَ مظالِمُهُ،** ولذلك تأصيل. ينبغي أن ندرك أنه كما للصيد واللقط مسببات ومحددات، فللزراعة مسببات ومحددات بالمثل، وكلاهما له لوازم للتمهيد لظاهرة التمدن. ففي العصر الزراعي كانت العشائر والقبائل في حدود بضع عوائل إلى خمسمئة نفر تؤسس مضارب رعوية على مقربة من عين ماء أو قرية زراعية قرابة مجار مائية أو آبار جوفية فتشرب وحيواناتها وتروي من تلك المصادر وتتغوط وترمي بفضلاتها في الخلاء مسافة عن المساكن. وتظل الماشية والدواجن تحيط بها قرب المساكن لرعايتها، وتذهب الناس للحقول والبساتين مسافةً لا تزيد عن نحو عشرة كيلومترات يومياً،[74] وإلا صار جهد المشي ذهاباً وإياباً بعشرين كيلومتراً أكبر من جهد العمل فيها![75] المهم في هذا السياق القروي هو كون الازدياد السكاني للبشر في غياب المجاعات والأمراض والحروب قدراً طبيعياً. وعليه فكلُّ قرية

---

[74] يجوز للرعاة المسيرُ مسافاةً طويلة ذلك لأن الرعي يقتضيه أحياناً، ولأن الرعي لا يلزم عنه الكدحُ في الأرض بل مجرد المراقبة والتوجيه والمرافقة للقطيع. وعليه يخرج عمل الرعي من القيد المذكور ولا يغير طبيعة المعادلة التي تشمل الفلاحين أساساً.

[75] وقد يزيد تجمع العوائل أو العشائر ليصل أربعة آلاف في القرية الواحدة. ولو حذفنا نصف السكان من الإناث المنشغلات بالأطفال والأعمال المنزلية والبستنة والغَزْل، ونصف النصف من المسنين والأطفال الذكور غير القادرين على العمل نتوصل للربع. لو قدَّرنا أن ألفاً من السكان متخصصون في رعاية هكتار من الأرض، مما سيجعل دائرة الأراضي حول القرية تصل مساحة ألف هكتار وهو مساحة معقولة للمشي اليومي من وإلى ألف مسكن. لكن الفائض السكاني للقرية سيضطرها للانفصال لبناء قرية مجاورة فيما لو حاولت بلوغ عشرة آلاف. وهكذا تظل القرى في توزيع خفيف من السكان ولا تتحول إلى مدن.

ستتزايد سُكانياً في الظروف الطبيعية إذا ما غابت أسباب الموت غير الطبيعي، من حروب وأمراض وكوارث، وهي كثيرة أيضاً. لكن إذا كانت بعض المجاميع السكانية الصغيرة تتزايدُ فما سر عدم تحول كل قرية في العصور القديمة إلى مدينة؟ الجواب على مراحل. الأول أن الناس تتكاثر في هذه القرى لتصل حداً معيناً، فإما أن تنفصل عن عوائلها لتأسيس قرية مجاورة أو تحوِّلَ القرية لمدينة. وخيار الانفصال لتأسيس قرية مجاورة هو الأعم والأسهل لأن خيار التحول إلى مدينةٍ عسيرٌ جداً. وعلى ذلك فإن تصوُّرَ حصول قرية بدائية بعشرةِ آلاف من المزارعين وحيواناتهم والأراضي التي سيعملون فيها في الأراضي المحيطة أمر عسير، ذلك أنها ستفضي لجملة من العواقب أحصي منها ستاً: **أولاً** أنها ستصل حداً من بُعد الحقول المُرهق لمشي الفلاحين عن مركز سكناهم؛ **وثانياً** أنها ستبلغ رتبةً من الاكتظاظ والتضارب بين السكان ومواشيهم؛ **وثالثاً** أنها ستتفاقم حالة من عُسر تنظيم أساليب التزود المائي وتصريف التغوط والفضلات المنزلية لتلك الحشود؛ **وخامساً** أنها ستضطربُ وضعاً من سوء تنظيم الموارد إلا بالتمكن من حرفٍ اختصاصية تقدم مهارات البناء والطرقات والإمداد وإخراج الفضلات؛ **وسادساً** أنها ستتدهور مسلكاً من الفوضى أو التنازع بين العوائل البعيدة عن بعضها نسباً، إلا بظهور سلطانٍ يُقنن تجاور هذا العدد من الناس. **وعليه لا تتحول القرية إلى مدينة إلا إذا تخلّت القرية عن ماهيتها أي عن مجمل وظائف القرية من فلاحة ورعي وإنتاج غذائي.**[76] لكن كيف للقرية التي انقلبت مدينةً أن تتغذى فيما لو تخلت عن وظيفتها الإنتاجية؟ ذلك بأنها تصير مركزاً إقليمياً لجملة من القرى

---

[76] TimeMaps, "The Origins of Civilization: From Villages To Cities," *TimeMaps* (blog), accessed September 6, 2022, https://www.timemaps.com/encyclopedia/origins-of-civilization/.

ولقد حظيت المكتبة العربية بمناقشة موسعة لهذه الموضوعات في كتاب لويس ممفورد، المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها. ترجمة: ابراهيم نصحي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016).

الكثيرة حواليها. وعليه يصير إنتاج الغذاء من اختصاص تلك القرى لتغذية ساكنتها وساكنة المدينة بينما تقوم الأخيرة المتمدنة بالتفرغ "لرابوع العمران" الذي يخصها وحدها دون القرى.

رابوع العمران هذا هو إدارة السلطة والثروة والتقنية والثقافة. وشرح الرابوع العمراني ما يأتي: 1- فَمن إدارة السلطة تُخْضِعُ المدينةُ بأجنادها فلاحي القرى ورعاة البادية لتقديم الفوائض الإنتاجية سخرةً أو ضريبةً أو زكاةً، 2- ومن إدارة الثروة يتحقق توزيع العمل في سوق العرض والطلب وتسعير المنتجات وتبادل الحاجات وتحقيق الأرباح وتأمين سلامة الطرقات وصك العملة إن لزم، 3- ومن إدارة التقنية تُعَلَّمُ وتباعُ أساليب البناء (المساكن والمعابد) والمواصلات (الطرقات والجسور والعربات والسروج والحذوات)، فضلاً عن أدوات القتال والزراعة ومنتجات اللباس والأدوية والزينة، 4- ومن إدارة الثقافة تُنظم طقوس الدين والقوانين والأعراف التعامل مع كل ما سبق، أي من السلطة خضوعاً، ومن الثروة إدارةً، ومن التقنية تعليماً، ومن الدين أو الآيديولوجيا بناء للهوية وفرشاً لتصوُّر العالم. هكذا تصير المدينة شبكةً كبرى للسيطرة على الأقاليم الريفية المجاورة من جهة السياسة والاقتصاد والتقنية والثقافة. هذه العلاقة الشبكية يمكن تكبيرها على سياق الكوكب، إذ تُفسِّرُ لنا كيف أن علاقة المدينة مع قراها مُشاكِلَةٌ لعلاقةِ مدن الأقاليم بالعاصمة في المملكة الكبيرة. وبالمثل فعلاقة عواصم الأقاليم مع العاصمة مشاكلةٌ أيضاً في حالة الإمبراطورية الممتدة مع العاصمة العظمى، لكن بمضاعفة نوعية وكمية السيرورات التي تجري في رابوع إدارة العمران.

بعد هذا التقديم، نفهم الآن ما استقر في الثقافة العربية الإسلامية من تعظيم وتغزُّل وتوَجُّدٍ على حواضر الإسلام الكبرى كبغداد ودمشق والقاهرة وفاس وقرطبة، وما كان يجري فيها من سلطان وأشعار واجتهادات وثروات. وبعض هذا التعظيم للحواضر مأصول في الشريعة بالحض على التمدن. لا بل ورد نهي من النبي لبعض

أصحابه عن ترك المدينة إلى البادية، كما يفهمه بعض المفسرين كما في شرح الحديث: "'من سَكَنَ البادية جَفَا' أي جَهِلَ، قال تعالى (الأعراب أشد كفراً ونِفَاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله)."[77] لا بل يذهب حديث آخر لتحريم النكوص عن التمدن وعَدِّهِ كبيرةً من الكبائر. وتعليل ذلك ربما لأنه رجوع عن هجرة المهاجرين ليثرب أو لمنع اختلاط الطليعة الإسلامية الباكرة بأهل البادية من المشركين إذ ينص: "اجتنبوا الكبائر السبع، فسكتَ الناس فلم يتكلم أحدٌ، فقال: ألا تسألوني عنهنَّ؟ الشرك بالله، وقتل النفس، والفرار من الزحف، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، والتعرُّبُ بعد الهجرة"،[78] أي المعاش في البادية بعد التمدن.

إزاء هذا التعظيم التراثي في الإسلام للتمدن، وإزاء النهي عن ترك حاضرة النبي في العصر الزراعي، يظهر النقد المعاصر للتمدن في العصر الحداثي بحجج وجيهة عن الازدحامِ والتلوث والضوضاء والاغتراب والتفاوت الطبقي. لكن كيف لرابوع العمران الزراعي ألا يتكاثف ويتضخم بقدوم الحداثة؟ أي كيف لإدارة السلطة ألا تنتج الوزارات الحكومية الضخمة فتربط الإدارات وتعلو على الإدارات الصغيرة في الأطراف؟ وكيف لإدارة الثروة ألا تستعينَ بمَصرِف مركزي وسيرورات مصرفية معقدة تنظم تراكم المعاملات اليومية البسيطة؟ وكيف لإدارة الثقافة ألا تقتضي وجودَ الجامعات الكبرى والقنوات الإعلامية والمجامع العلمية والموسوعات التي تتعاضل على صغار المتعلمين؟ وكيف لإدارة التقنية ألا تفضي للمصانع وشبكات المواصلات والاتصالات التي لا يُفتي في شأنها العموم من غير أهل الاختصاص؟ أو قل كيف لكل تعقيدات رابوع العمران ألا تشترط وجود المدينة؟

---

[77] محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المجلد الثاني (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، 1963)، 32.

[78] محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1995)، المجلد الخامس، 299.

لِنُعِدْ صياغةَ إشكالات التمدن بنحو آخر. بما أن البشرية اليوم بفضل الإدارة والطاقة والتقنية لم تعد عالةً على الزراعة والرعي، فلم يعد هناكَ ما يوجب على تسعة أعشار البشرية أن تعمل في إنتاج الغذاء لتعيل معشاراً من نخب رابوع العمران من أهل المدن. ولغياب هذا الموجب من إنتاج الغذاء تولّدت تحديات كبرى جديدة لم تكن في حسبان الأعصار الزراعية. وعليه ظهرت إجابات الحداثة العمرانية مهمومة بالإشكال الأعظم: أي كيف نُسكِنُ أكثر من نصف سكان المعمورة في رقعة جغرافية ضيقة مخدومةٍ بكل تقنيات الإسكان والمواصلات والاتصالات والترفيه والتغذية والمياه والتخلص من المجاري والقمامة دون أن تلتجئ لنموذج المدينة؟ هذه الاسئلة الاستنكارية توجب حصول المدينة الحديثة لأنها المركز المتكثف لإنجاب الكفاءات المتخصصة من مجمل السكان ورعايتها. أو قل إن المدينة هي شبكة توليد واصطفاء وتمكين لمديري السلطة مُشرِّعينَ ووزراءَ، ومديري الثروة مستثمرينَ وصَيارِفَةً، ومديري الثقافة واضعي مناهج وموسوعات تعليمية وإعلامية ودينية، ومديري التقنية مُهندسِينَ للطاقة والمواصلات والاتصالات والمنتجات. لا بد من الإقرار بأن هذه السيرورات المُكثَّفَة للسلطة والثروة والثقافة والتقنية ستفضي لمآلات عاجلةٍ أو آجلة من التلوث والضوضاء وتكثيف الأمراض والبعد عن الطبيعة والصفاء والاغتراب عن العوائل والجيران والجهل بالذات. أي إن طلب التمدن وتعقد رابوع العمران لا بد يوقعنا في عنقود من المتناقضات والتطرفات المتعاندة. فالتعاظم في الضبط الإداري مصاحب للتسلط والهيلمان لاشتداد التفاوت بين الموظف الصغير والوزير، والازدياد في الإنتاجية مرافق للثراء الفاحش، والتسابق في الثقافة والمعارف يلزم عنه التعقد والالتباس وبُعد الشُقَّة بين العامة والاختصاصيين، والتقدم في التقنية يشترط مخالفة المسالك المألوفة أو الطبيعية لما يجري في الماضي البدائي. لا هذا بغير بعضٍ من تلك،

ولا تلك بغير بعضٍ من هذا. وكل نفي لهذا هو نفي لتلك، وكل طلب لتلك إقرار بهذا. وعليه فالتمدن مكابدة وعنقود استئلافي وليس مشروعاً طوباوياً نظيفاً من أوله لآخره!

ومن كان رافضاً لثورة التمدن الحديثة فيكفيه أن يعلم أن المدينة نفسها بدعةٌ تاريخية لا سابق لها قبل مدن الهلال الخصيب،[79] قبيل خمس ألفيات خلت.[80] وإذا كانت المدينة سيرورة مبتدعَةً أخذت تظهر على التتابع بعد الهلال الخصيب في مصر والصين والهند وأوروبا وأمريكا الجنوبية والوسطى فما ذلك إلا لأن الإنسان صار يُسائِلُ القيم المتعارضة لمعاشه الزراعي-الرعوي وصار يفكر في عنقود استئلافي لمنافع وجود التمدن من عدمه. **أي صار يؤلف بين المنافع الواجبة لرابوع القانون والسوق والكتابة والآلة،** فصار يسدد ويقارب ليواصل بقاءه. وما على نقاد ثورة التمدن الحديثة إلا أن يشددوا على نفي خَبَثِهَا بنفي مفاسد الاكتظاظ والتلوث والضوضاء وتكثيف الأمراض والبعد عن الصفاء والاغتراب والتهميش والظلم. والحق أن التمدن الحداثي يقدم بعضاً

---

[79] *Richard Bulliet - History of the World to 1500 CE (Session 2) - Valley Civilizations 8000-1500 BC* (New York, N.Y., 2010), https://www.youtube.com/watch?v=zRqYx25iPeg.

[80] هناك استثناء لا يغير التعميم كثيراً، إذ يكشف المؤرخ الكوكبي القدير رتشارد بوليت (المؤرخ النادر العارف بالعربية والتركية والفارسية لغاتٍ وثقافاتٍ) في المحاضرات الختامية بجامعة كولومبيا قُبيل تقاعده عن صدمة كبرى، إذ هناك حضارةٌ مكتشفةٌ حديثاً تسبقُ السومريين بخمس مئة عام [4000 قبل الميلاد] في رومانيا على ضفاف الدانوب قرابة البحر الأسود وتحوي ضعف عدد السكان السومري [5000 نسمة]. هذه الحاضرة هي الأولى تاريخياً بهذا الحجم وهذا التمدن، لكنها لم تستمر كاستمرار السومريين ومن لحقهم. والسبب في عدم انتشار المعلومة هو أن الاكتشاف الأثري تم في أجواء بحوث المعسكر السوفيتي لأوروبا الشرقية فلم يتم تعميمه لدى الحفريين الغربيين نظراً لصعوبة الحركة والتنقل بين المعسكرين آن ذاك. لكن لعل العذر أن الحضارة السومرية استمرت ثقافياً في المدائن اللاحقة عليها ولا نعرف مثل هذا في المدينة الدانوبية المذكورة.

Richard Bulliet - History of the World to 1500 CE (Session 2) - Valley Civilizations 8000-1500 BC.

من الأدوات والمقترحات والخطط لمقاومة هذه المضار بأشد مما لو قاومناها بدونها. وحسبك أن الربط المعلوماتي بالحواسيب، والربط المواصلاتي بالسكك الحديدية صار يمكّن الكفاءات من العمل من خارج المدن أو قرابة أطرافها. ويكفي أن نعلم عن مبتكرات تدوير مياه الصرف الصحي للمزروعات، وعن إمكانية جلب المزروعات لأسطح المباني المدينية، وعن إمكانية ازدراع حدائق غابية لكل حي من أحياء المدينة، وعن وجود خلطات إسمنتية وأسفلتية نفاذة تسمح بتجدد المياه الجوفية بالمطر دون تكثيف الفيضانات، وعن وجود مجالس إدارة للأحياء ونواد للهِوَايات وتربية الأطفال والتعاون على المشاكل النفسانية والترفيهية، لنعلم بوجود مقترحات تخلّص المدينة من الصيغ المرعبة التي حصلت في الغرب وتتمدد اليوم للعالم الثالث بشكل مُقزز. أما التعرض بالإبطال لثورة التمدن الحديثة بالجملة، فهو كالتعرض بالقدح لثورة التمدن القديمة، كلاهما إفساد وكلاهما بالحكمة الاستئلافية يزداد صلاحاً.

4.3. الانقلاب الرابع، في أن منافع الثورة العقلانية التجريبية للعلم والتقنية حتمية، وأن العقلانية التجريبية تطلب غايات وتصادم أخرى، ويجدرُ بالاستئلاف أن تُقلّلَ مضارها، ولذلك شرح. ما لا يدركه نقاد العلم والتقنية أنهم هم أنفسهم وأجدادهم ممارسون للعلم والتقنية بقدر من المقادير كرهوا ذلك أم أحبوا. ألا يحتسبون مساحة أراضيهم للبيع والشراء والميراث والعمران بقوانين هندسية هي جزء من العلم؟ ألا يغلون الماء طلباً لطبخ الطعام ولإذابة مذاق الأعشاب في المشروبات الساخنة وهي سيرورة علمية تقنية؟ فهل سيحسبون مساحات الأراضي بالتكهن والتخمين؟ أو يكفّون عن طبخ الطعام عِناداً؟ ما لا يفقهه هؤلاء النقاد هو حصول تفريق حاسم بين العلم والتقنية. فالعلم مجرَّدٌ وموضوعي، لكن التقنية تطبيق لنظريات العلم في جهاز ما، أو مشروع معين، أو علاج مخصوص. ولذا فالتقنيةُ بطبعها مُسيَّسةٌ وخاضعة

للتمويل وتقلبات السوق. لكن العلم في بنائه لا يخضع ولا يحابي أحداً. أو قل مثالاً أن العلم يشرح ماهية التركيب الكيميائي لسم الثعبان وبيان كونه قاتلاً للإنسان أو نافعاً في تركيب أدوية معينة. أما أخذ سموم الثعابين وقتل الناس أو مداواتهم بها فمن صنع التقنية لا العلم. العلم لم يختلق الأفاعي ولا أوحى لها بإفراز سمومها، بل هو قام بدراسة ما تقوم به الأفاعي كما هي. أخْذ سموم الأفاعي لنفع أو ضر هو فعل بشري محكوم بمروءة التقاني، وصلاح مجتمعه، وسداد ثقافته أو عدم ذلك.[81]

لنأخذ صورة أشمل للواقع العولمي المعاصر في سياق العلم والتقنية وهو ما يوجب ممارسة صيغ عديدة من العقلانية التجريبية على النحو الموالي: 1- المدن العظيمة لا تعتاش بغير إمداد تجاري كبير من أطعمة بحرية لدواخل القارات، أو من خضروات من البلاد الدافئة للباردة، أو حبوب من البلاد الخصيبة للجافة. فهل يروم نقاد الحداثة العودة لزمان ما كان يرى المرءُ وريقةً خضراء طوال الشتاء؟ أم لزمان ما كان فيه أهل دواخل القارات يعرفون ما السمك؟ 2- ضبط هذه الحركة التجارية العالمية جواً وبحراً وبراً صار يتم بأنظمة حاسوبية معقدة لا تقوى السجلات الورقية على حفظ كمياتها وأسعارها وتقلباتها لكل سلعةٍ بين المشترين، ولا تكفي المراسلات الشفهية أو الورقية للقيام بها. أم هل يريد نقاد العلم فعل ذلك؟ وتعلُّم علوم الحوسبة هذه عمل عقلي معقد ينبني على تعليم طويل الأمد للبرمجيات والذكاء الصناعي ما

---

[81] قد يقول القائل، العلم لم يأمر بمداواة أو قتل الناس بسموم الأفاعي، لكن بما أنه كشف عن مدى هذه الامكانيات النافعة والضارة المزدوجة فكأنما أوحى ووَسوَسَ لعقول البشر بمثل تلك التطبيقات التقنية على نحو مزدوج. وهذا الفهم سليم إذ العِلم أو المعرفة، لا بل العقل البشري مصدر لكل وسواس ضار كما أنه مصدر لكل دافعية خيِّرة بالمثل. فهل يطلق الناسُ النارَ على عقولهم مخافةَ أنْ توسوس لهم؟ لا مهرب من أن يوحي العلمُ بنتائج مزدوجة، كما حصل مع أول حجر ذي نصل في العصر الحجري القديم، فقطع به ذلك الإنسان عرق نبتة شوكية أو قذف به رأس إنسان يبغضه. المكابَدة مع وسواس العقل أو العلم عَرَضٌ كوني يتلبس كل أفعال الإنسان أياً كانت.

يهذب سيرورات عصبية معينة في الدماغ. 3- وفهم هذه السيرورات يكون **بعلوم المِعراف**.[82] هذه الآليات المِعرافية لا يكتمل فهمها بغير إدراك تشريح آلة المعرفة، أي

---

[82] علوم **"المِعرافيات"** هو اقتراحي لترجمة العلم المستحدث كوغنتف ساينس، Cognitive Science. وهذا علم توليفي بين سابوع من جملة علوم، ألا وهي علم الأعصاب الدماغي من مباحث الطب وتشريح الأنسجة، وعلم الغرائز والعواطف والسلوك والملَكات البشرية من علم النفس، وعلم الاكتساب والتوليد اللغوي من مباحث اللسانيات، وعلم البرمجة والذكاء الصناعي من علم الحوسبة، وعلم المنطق ونظرية المعرفة من مباحث الفلسفة، وتفسير اللُقى والحفريات البشرية من علم السلوك التطوري، وأثر الثقافة والأيدلوجيا والهيعات الفكرية والمؤسسات الأكاديمية على أذواق وأحكام الفرد من علم النفس الاجتماعي. وهذه سبعةٌ يجوز الإضافة عليه ما يلزم للتفسير العلمي لاكتساب الدماغ البشري للمعارف ولإنتاجه لها في سياق مجتمعي. والجمهور الترجمي العربي في حيرة عظيمة أمام هذا اللفظ لعدم الانطلاق من تحديد ماهيته السُباعية تلك. فبعض المترجمين يترجم هذا العلم الجديد **بعلم المَعرفة**، وهي ترجمة حُجزت في السابق لمبحث الأبستمولوجيا، أي نظرية المعرفة في الفلسفة، فلا داعي للخلط. والبعض الآخر يُشيع ترجمتها **بالعرفان**، وهذه الترجمة غير مقبولة لأن العرفان في التداول العربي الإسلامي اختص بالذوق الصوفي غير الفقهي، ولأن العرفان استمدادٌ من الفكر الفلسفي الإشراقي غير المنطقي، فضلاً عن كون العرفان شاع مقابلاً للفظ القديم Gnosis. وعليه فلا يناسب للعرفان أن يدل على علم فيه جانبٌ منطقي ميكانيكي كالذكاء الصناعي! وهذا تحويل في المعنى إلى حدّ التصادم، والأولى أن يَعدِلَ عنه من اختارَهُ من المترجمين. وذهب بعض آخر لترجمتها **بالعرفنة** على وزن الفعللة، لما في عمليات الدماغ من سيرورات وتكرار. وهذه خاصية لا تنكر، إلا أن الصيغة التكرارية لا تشمل السيرورات الإبداعية والحدسية للدماغ التي لا سابق لها لتكرارها! وذهب رهط رابع لتسميتها **بعلوم الإدراك**، وهذا اللفظ أيضا محجوز لسيرورة جزئية محددة من سيرورات الدماغ. إذ السيرورات النفسية تفهم على أنهم (حس، ويقظة، وإدراك، وذاكرة، ووعي، وذكاء، وعاطفة، وشخصية، ونمو جيلي، وانفعال لغوي، وتفاعل اجتماعي، ونضج، أو انحراف نفسي). وفي هذه السيروات يكون "الإدراك" محاولةً تفسير الحس، شأن محاولة تفسير السراب أو تجربة لمس الطفل انعكاس صورته في المرآة. وهنا يكون الإدراك مرادفا للفظة بيرسبشن الانجليزي لا أكثر من ذلك. وفي هذه الحال تظل علوم المعراف أكبر من تلك السيرورة المنفردة وأكثر تعقيدا وتشابكا مع سيرورات أخرى بدرجة عظيمة. وعليه فالأسلم في نظري هو أن نوافق مراد هذا العلم ألا وهو كيف ينتج الدماغ أحاسيسه وعواطفه ومعانيه وأفكاره ومبتكراته وسلوكاته وأعرافه بناء على توليف **سباعي أي حواسي-هرموني، شُعوري، لغوي، فكراني، حوسبي، تطوري-بيئي، ثقافي مخصوص**. وعليه فصيغة الوزن "استفعال" مناسبة لطلب الشيء فنقول علوم الاستعراف، أي طلب المعارف. لكن وزن الآلة أليق وأشدُّ مطابقة لمقصود مخترعي هذا العلم. **أي ما الآلة الدماغية الفكرية الاجتماعية التي تُنتج المعرفة؟** ولذا أقترح

الدماغ، بطريقة أحيائية بحتة، من أنسجة وخلايا وأعصاب وهرمونات ونواقل عصبية، ما يحتاج التخصص والتعلم المعمق من خلال علم الأحياء. وحسبك أن تقع للمرء ضربة أو صدمة في جانب من دماغه أو جلطة دماغية حتى يلحقها تعطل في أحد الوظائف الدماغية من ذاكرة أو إبصار أو قدرة على التركيز. فهل يروم نقاد العلم ترك التداوي من هذه الآفات أو نسبة فقدان الذاكرة لجن أو سحر ما؟ 4- هذه العلوم الأحيائية لا تُسْتَكنَهُ بغير دراسة مادة البروتينات والأنزيميات والنواقل العصبية وطبيعة المورِّثات. ويكفي أن تعلمَ أن الأثر الضار للخمور والمخدرات على هذه النواقل العصبية الدماغية، أو الأثر المنشط للشاي والقهوة عليها. وتلك المواد الداخلة في أنسجة الأحياء هي مواد كيميائية صريحة. فلا فهم للأحياء بغير علم الكيمياء. وماذا لو انتفخت غدة أحدنا من اضطراب هرموني ما، فهل سيكره ناقد الحداثة التحليل العلمي المخبري الكيماوي ليعرف دواءه؟ 5- هذا العلم الكيميائي يخوض في مسح مواد الكرة الأرضية مُصنِّفاً خواصها الكهربائية والمعدنية والغازية واللونية والتفاعلية، حتى لا نكاد نقع اليوم على مادة من باطن الأرض لا نعرف ماهيتها الكيماوية. ويستمر هذا العلم في دراسته إلى أن نربط الخليط أو المركب الكيميائي بذراته وأنويته ومجالات الطاقة فيه لندخل في علم الفيزياء. بعد هذا التعمق هل يريدنا نقاد العلم أن نعود للقول اليوناني القديم بأن المادة أربعة لا غير: أي ماء ونار وهواء وتراب؟ 6- فإذا وصلنا

"علوم المِعراف" على وزن المِفعال، أو لنختصرها بالمِعرافيات. ولا نقصد بالآلة هنا حمولةً فكرية معينة أو توجُّها مذهبيا كما للمدرسة السلوكية أو الذكاء الصناعي بل آخذ الآلة بمعنى الآلية. والآليات كما هو معلوم قد تكون حتميةً كالتسخين، أو احتماليةً كاستنساخ المُورِّثات، وقد تكون خطيةً كالاستماع لِمُتكلِّم، أو شبكيةً كنمو الجذور أو تشعب الفطريات. وعليه تقتدر الاستعارة الآلية لعلوم المِعراف على حمل جل الابتكارات السباعية التي تولَّدت أو يمكن أن تتولد في حقول المِعراف. وأرجو أن يوافقني على هذا الجمهور الترجماني العربي. ولحسن حظ المكتبة العربية فقد ظهر هذا الكتاب المُتخصص في شرح علوم المِعراف، ماريو بونجي، المادة والعقل: بحث فلسفي، ترجمة: صلاح إسماعيل، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2019.

علم الفيزياء دخلنا في تفسير ميكانيكا المادة وسكونها، جاذبيتها وطاقتها، اندماجها وانشطارها، موجيتها وكهربيتها، إلى آخره من أبواب الفيزياء. فعرفنا من مبحث البصريات مثلاً كيف ننتج عدسات للنظارات تعدل من زوايا إبصارنا لنعاود القراءة القريبة ورؤية وجوه أحفادنا عن بعد. أم لعل نقاد العلم يفضلون الحياة عماءً عن مطالعة وجوه الأحبة وكنوز الكتب؟ 7- فإذا أقمنا الفيزياء حق إقامتها كان ذلك بفضل العلم المجرد للرياضيات، وهو علم دراسة الكميات، والخصائص المجرَّدة، والعلاقات المنضبطة فيما بينها، والتي من دونها لا حساب للمواريث ولا التجارات ولا مواقيت الشهور والسنوات.

الحاصل من العلوم السبعة المتراكبة أن رشي لحبة خردل هندي على وجبة عربية في بلد أوروبي، هو نتاج تجارة عولمية، استعانت استعانةً صريحة أو خفية بعلوم الحوسبة، فعلوم المِعراف، فعلوم الأحياء، فالكيمياء، فالفيزياء، فالرياضيات! والاستعانة ليس على المستوى النظري للعلوم بل على مستوى الوجود نفسه. إذ السلسلة واحدة متصلة، من شركات تجارية عولمية، لبرمجيات حوسبية معقدة، لعلوم إدراكية تحتاج دُربةً تعليمية للأدمغة، تخوض إطعاماً حيوياً، وتطبيباً كيماوياً، وتدفئة ونقلاً بالطاقة الفيزيائية، لحسابات ومعادلات رياضية. أمام هذه المنجزات يقر المجتمع البشري بالعرفان للعقلانية التجريبية ما يجعل من المستحيل نبذها. وإلا فلنتحول لعصور الجهل والطلاسم حينما كان السحرة والكهان وشعراء القبائل لا يدرون ما **سلسلة الوجود المتصلة من الذرة، للجزيء، للخلية، للدماغ، للكائن الحي، للتقنية، للكون.** هذه سلسلة متصلة لا انقطاع فيها، ورفضها قطع للصلة الرحمية للإنسان بأصله وفصله في الطبيعة. والصد عن صلة الإنسان برحمه الكوني الأعظم جحدٌ بانكشاف سلسلة نَسَبِ الأشياء في الكون، أي كيف للآلة أن تفكر بالحوسبة، وكيف يبزغ الفكر من الدماغ، وكيف تنتج الحياة عن الخلية، وكيف تتنوع المواد

بالتراكيب الكيميائية، وكيف تنبني الذرة على الطاقة، وكيف تمتلك كل تلك الظواهر خصائص كمية تدرسها الرياضيات.

سلسلة الوجود المتصلة من أصغر ما في الكون لأكبر ما فيه هي المكون للأغصان الأساسية لشجرة المعرفة. وبما أن المعادلات الرياضية، والذرات، والجُزيئات، والخلايا، والكائنات الحية، والأنظمة العصبية في هذا الكوكب مشتركةٌ بين كل الشعوب ويخضع لها الحاضر كما الماضي، فلن يكون هناك تفاوتٌ في الحقائق العامة ولو اختلفت ثقافات الشعوب وتفاوتت نفسيات الأفراد.[83] وعلى ضد من ذلك سيكون التفاوت حاصلا بين اللغات والآداب والأخلاقيات والفنون والأديان والتراثات والنفسيات وهي كلها من مظاهر الثقافة البشرية لا مظاهر الطبيعة. وبما أن اتفاق البشر على الأُسس العامة للرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والأعصاب والتقنية يحددان حتماً كثيراً من معطيات العناصر الداخلة في الثقافة، التي تتجلى في رابوع العمران، فإن مستوى المشترك الطبيعي بين البشرية يظل أكبرُ من مستوى النسبي الثقافي. ومصداق ذلك أن **البشرية تتفق على أسباب ضرورتها من حياة وموت، وأسباب حاجياتها من صحة ومرض، لكنها تختلف على مسالك تحسينياتها من سعادة وتعاسة،** وهو ثُلث الخلاف تقريباً.[84] حاصل الاستدلال أن مجموع الضرورات والحاجيات التي تحددها العلوم الطبيعية عابرةٌ للثقافة المُسلِمة والهندوسية

---

[83] من الكتب الحديثة والجامعة والمبسَّطة في شرح منجزات الفكر العلمي هذا الكتاب: جيمس تريفيل، لماذا العلم، ترجمة: شوقي جلال (الكويت: عالم المعرفة، 2010).

[84] شرحتُ هذه المسألة في بحث صدر بالانجليزية وهذا ترجمة عنوانه: كيف يمكن لأصول الفقه الإنسانية-العلمية التواصل مع أصول الفقه الإسلامية؟

A. Z. Obiedat, "How Can Bunge's Scientific-Humanistic Ethics Engage Islamic Moral-Law?," in *Mario Bunge: A Centenary Festschrift*, ed. Michael R. Matthews (Cham, Switzerland: Springer Verlag, 2019), 497, https://bit.ly/2MzOSKg.

والملحدة، لكن التحسينات إضافات ثقافية تختلف بين تلك الجماعات بحسب مذاهبها. فما أقبحها عيشةً وما أشدَّهُ كفراً أن يعاند المرء منجزات وكشوفات سلسلة الوجود الكبرى وأسرارها زاعما أن حقائق الطبيعة مخصوصةٌ بثقافته لا غير، فيطالب بأسلمة العلوم أو تهويدها أو تمجيسها! وكأن حقائق الطبيعة لا تُشرِقُ إلا على قومه وتطبيقات التقنية لا تظهر إلا عند الناطقين بلسانه!

بناء على ما سبق، وجب أن يفرِّق الناقد الحداثي بين العلم والتقنية وأن يدرك أن العلم صنو لما انكشف من ماهية الطبيعة وحقائق الأشياء.[85] ووجب التسليم بأن الخروج على العلم خروج على المعرفة والصدق ودخول في الجهل والكذب. إلا أن يكون نقد الحداثة دعوة لفلسفة الكذب والجاهلية وهذا مما كُفينا عناء الرد عليه. ومن أراد نبذ العلوم الطبيعية والتقنية الحديثة فعليه التوقف عن الإحالة المتكررة على حث القرآن على النظر في الآيات الكونية كما في الآية "ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ [الرحمن: 5]، ونبذ الحديث النبوي الذي رواه البخاري والحاض على التداوي: "إن الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاء". لا بل ينبغي لأعداء الحداثة التوقف التام عن التباهي بمنجزات تراث الحضارة العربية الإسلامية، من مثل جبر وخوارزميات (لوغارثمات) الخوارزمي، واكتشاف علم البصريات لدى ابن الهيثم، واكتشاف الدورة الدموية الصغرى لابن النفيس، وتطوير علوم الجراحة الطبية للزهراوي، والحسابات الجغرافية

---

[85] نبهني الباحث الجزائري حسام تمرسيت على هذه المقولة لمفكر جزائري لم يأخذ حقه في تاريخ الفكر العربي الحديث. "...كما أن العلم شيءٌ وتطبيقه في التكنلوجيا الحربية أو في الجرائم شيء آخر؛ فكما أن العلم غير مسؤول عن استعماله في اضطهاد الشعوب والطبقات البروليتارية في العالم، بل تطبيقه هو المسؤول، فكذلك الدين في رأينا ." عبد الله شريط، المشكلة الأيديولوجية وقضايا التنمية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1981)، 40.

والملاحية للبيروني، وأمثال ذلك الكثير.[86] لا يمكن أن نذم العلم والتقنية المعاصرة ثم نبحث عن مشابهاته من العلوم القديمة لنفخر بما يوافقها ويناظرها! هذا فصام في التفكير.

وما على نُقاد الثورة العلمية التقانية الحداثية إلا أن يشددوا على التسهيل من تعاضل العلوم على الصبيان، والتهوين من مصادمة مناهج تعليم العلوم للسكينة النفسية، وضرورة إنتاج توجه علمي قدساني يشدد على كون العلم آلة الصدق وطلب الحق ضمن مظلة المقدس لا معانداً لها. وهو ما سيمكّن من تفسير علل ظهور التراثات القديمة الباطلة، وشرعية استمرار بعضها، وضرورة تجاوز بعضها الآخر. والحق أن العلم والتقنية الحديثين هما ما ينبهان على التلوث المائي، والتغير المناخي، والانقراض الأحيائي، وضرورة المخيال والروحانية للنظام العصبي والمعاش النفساني، وأهمية الثراء الثقافي والتربوي للمجتمعات. ولا يمكن إدراك هذه المضار فضلاً عن مقاومتها إلا بأدوات العلم والتقنية. أما التعرض بالإبطال لثورة العقلانية التجريبية الحديثة بالجملة أو بالغمز بمنجزاتها، فهو كالتعرض بالقدح لطلب الصدق والتحقق في علوم الطب والهندسة والحساب قديماً، كلاهما إفساد وكلاهما بالحكمة الاستئلافية تتعاظم خيراته.

---

[86] من أمثال التوجهات العلمية التي يفاخر بها الدارسون للعلوم الطبيعية في الإسلام ما ينص عليه ابن سينا في فصل الأمراض النفسية عن الجن قائلاً: "وقد رأى بعض الأطباء أن المالنخوليا قد يقع عن الجن، ونحن لا نبالي من حيث نتعلم الطب أن ذلك يقع عن الجن أو لا يقع بعد أن نقول: إنه إن كان يقع من الجن، فيقع بأن يحيل المزاج إلى السوداء، فيكون سببه القريب السوداء، ثم ليكن سبب تلك السوداء جناً أو غير جن." الحسين بن عبد الله ابن سينا، القانون في الطب، تحرير: محمد أمين الضناوي، المجلد الثاني (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، 105.

5.3. الانقلاب الخامس، في أن مصالح الرأسمالية المتوازِنة ضرورية تطلب غايات وتناقض أخرى وينبغي بالاستئلاف أن تُقلل شرورها، ولذلك تفصيل. والحديث عن تسويغ الرأسمالية لقارئ عربي مُجوّع ومستَنزَفٍ من أطراف العالم الثالث ضربٌ من الوقاحة لا يأتيه إلا البعضُ من مروجي البنك الدولي واقتصاديي مدرسة شيكاغو وأمثالهما. لكن ليحذر ذلك القارئ بأننا لا نقصد بالرأسمالية عولمة الخصخصة لصالح الشركات الغربية العابرة للقارات التي شاعت بُعيد 1991، ولا رأسمالية هيمنة الدولار غير المغطى بالذهب بعيد 1971،[87] ولا رأسمالية البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بقيادة أمريكية بُعيد الحرب العالمية الثانية، ولا حتى رأسمالية العولمة الأولى لبريطانيا بعيد الحروب النابليونية 1815. بل نقصد بالرأسمالية "الأسواقية" حصراً. والفارق بين المفهومين أن الرأسمالية تتغيا تعظيم الأرصدة المالية لأفراد أو جماعات مخصوصين لآمر مُقدس يستوجب هذا التعظيم، بينما الأسواقية تتغيا تعظيم سيرورات المبادلة والإنتاج والابتكار لما في ذلك من فضيلة إشباع الضروريات والحاجيات والكماليات في سوق العرض والطلب لمجمل البشرية.[88] الأسواقية على هذا المعنى يُقصَدُ بها **جملة سيرورات تاريخية طويلة تقوم بجملة من التحولات في الإطار القانوني والثقافي لحقوق وواجباتِ أربعةٍ من الحقول: هي العمل، والمِلكية، والمبادلة، والتنمية.** ولا يملك الناقِد لتأُلّه الرأسمالية الحداثية أن يدعوَ للتغاضي عن فاعلية ووجاهة هذه الحقول الأربعة ولا العودة لأضدادها أي استعباد العمالة، ونهب الأملاك، والاضطراب في البيوع، والسعي للجمود أو إفقار المجتمعات.

---

[87] David Graeber, *Debt: The First 5,000 Years* (New York, N.Y.: Melville House, 2011), 53.

[88] نُقاد الرأسمالية المعاصرون من داخل المؤسسة الأكاديمية للاقتصاد الرأسمالي الحديث قِلّة، وهذا الكتاب من النوادر التي ظهرت بالعربية ضمن هذا الاعتبار: ها-جوون تشانج، 23 حقيقةً يُخفونها عنك بخصوص الرأسمالية، ترجمة: محمد فتحي كلفت (الدوحة: دار بلومبزبري ومؤسسة قطر للنشر)، 2013.

ولا يملك الدارس للتاريخ أن يعاند بأن الرأسمالية الحديثة والنظام النقدي الحالي لم يقوما إلا على الحرب والأهداف العسكرية أولاً.[89] إذ إن قيام مصرف إنجلترا سنة 1694،[90] كان بغرض اقتراض الملك وليم الثالث مبلغ 1.2 مليون جنيه من التجار[91] لتمويل حروبه مع فرنسا وهو أمر أخذ صيغته المؤسساتية بعد الحروب النابليونية،[92] ولا يزال يتعاقب حتى حروب أمريكا على فيتنام.[93] وكل هذه السيرورة الحربية للرأسمالية تدل على أنها مقاوِمة للسوق الحر. **إذ السوق الحرُّ حرّ لحرية المتبايعين على المنتجات والخدمات.** والحروب على المواد الخام من ذهب وفضة الأمرنديين في القرنين السادس والسابع عشر، واستعباد العمالة الإفريقية منذ السادس حتى التاسع عشر، وتعيين الطواغيت لحكم الدول التابعة للغرب في القرن العشرين،[94] كلها سيرورات تدل على معاداة الرأسمالية الحربية لفكرة السوق الحر أساساً. لا بل

---

[89] Graeber, 368.

[90] Graeber, 393.

[91] Graeber, 340.

[92] Graeber, 345.

[93] Graeber, 364.

[94] التعميم السابق يخص المعسكر الغربي دون الشيوعي لأن الشيوعيين لم يزعموا دعم الرأسمالية أو ممارستها. وبالرغم من ذلك، فلا شك أن المعكسر الشيوعي التابع لموسكو خاض مثل ما خاضه المعسكر الغربي من الحروب والاستعباد، لا بل أشد لشموله للاستبداد السياسي والثقافي معاً. والغاية كانت لاستعباد دول ليست إلا مناجم وأسواقًا تابعة له من مثل القوقاز والجمهوريات الإسلامية لآسيا الوسطى. ومثال صارخ على ذلك تفجير الاتحاد السوفيتي في كازخستان أكثر من 456 تجربة نووية لا يزال أهلها يكتوون بآثارها الإشعاعية كما تذكر معاهدة حظر التسلح النووي أدناه:
The Comprehensive Nuclear-Test-Ban Treaty (CTBT), "The Soviet Union's Nuclear Testing Programme," accessed August 8, 2022, https://www.ctbto.org/nuclear-testing/the-effects-of-nuclear-testing/the-soviet-unionsnuclear-testing-programme/.

لننظر في الظاهرة في مديات زمنية طويلة بين 800 قبل الميلاد إلى 600 بعد الميلاد إبان ظهور الإسلام. في هذه الفترة ظهر التداول الكبير للعملات في التاريخ البشري في مرحلة "العصر المحوري". ولقد تَسمَّى بذلك لظهور الآيديولوجيات والأديان الكبرى للكونفوشيوسية والبوذية والزَرادشتية والسقراطية وصولاً للإسلام. وظهور تداول العملات في تلك الحقبة إنما كان في عصر حروب إمبراطورية ما كان فيها لعلاقات الإقراض بين الأغراب من موثوقية. إذ المألوف أن يخرج الشاب القروي أياماً للإتيان بطريدة مجزية، فيطعم منها أهله وعمه وخالته. هذا الإطعام المجاني على أمل أن يطعمَهُ أهلُه من ثمار الحقول القريبة، وأن يعين العمُّ في تطيين غرفة ذلك الشاب حين الحاجة، وأن تقدم الخالة ثوباً للشاب حين اكتمال أعمال الغَزْل. وهكذا يقرض كلٌ من الأقارب خدمةً يؤمَّلُ أن تسددها خدمةٌ أخرى تتوافر عند القريب الآخر حين الحاجة ودون إلحاح أو اشتراط لتساوي الأثمان. لكن المحاربين المتنقلين بين البلدان لا يوثق في شخوصهم ولا في وعودهم، بل لا يؤمَّل رؤيتهم مرة ثانية، وعليه فلن تقدم لهم الأطعمة والخدمات إلا بعوض فوري مكافئ يدل على انعدام الثقة.[95] وهكذا تحل المسكوكات المعدنية بديلاً عن علاقات الثقة والإقراض بين الأقارب والمتجاورين لتكون علامة على علاقات عدم الثقة في سوق الحرب والاضطراب أيام العصر المحوري. ويمكن الاستنتاج من ذلك السياق التاريخي القديم أن ظهور المسكوكات على هذه الشاكلة الحربية كان علامةً على الافتقار وضعف التنمية لا علامة على الثراء وتضخم العلاقات السوقية كما كان مؤرخو النقد يستنتجون في الماضي!

ذانك إذن ملمحان سلبيان عن شيوع العملات في ذلك العصر وعن ظهور الرأسمالية الحديثة لتمويل الحروب، لكن في الأسواقية المتواشجة مع المرحلتين ملامح إيجابية. إذ هي جملة من التحولات التاريخية التي بدأت منذ بواكير الأسواق في

---

[95] Graeber, *Debt, Updated and Expanded*, 213.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الهلال الخصيب، ثم متاجرات البحر المتوسط أيام الفينيقيين، لاشتداد هذه العلاقات في الحضارة الإسلامية والصين. وينسب للصين في عصر سلالة تانغ قبيل بَدءِ الألفية الميلادية الثانية،[96] أنها هي من تولدت فيها الرأسمالية الأسواقية بالمعنى الحديث،[97] حيث ظهرت فيها معابد بوذية وقفية تتخصص في تنمية المال الموقوف للمعبد بحيث تكون مؤسسة غير شخصية تروم تنمية مردودها. لكن الأهم هو ظهور فلاحين يتخصصون في محاصيل سوقية ويعزفون عن تربية الحاجيات الغذائية من الدواجن والماشية والخضروات المنزلية بل وحتى فِعل الطبخ نفسه لتوافر كل هذه المنتجات اليومية في السوق. فحصل تخصص عظيم للإنتاج يتفرَّغ فيه الفلاح أو الحِرفي للمنتج الأكثر مردوديةً عليه دون الالتفات لحلب بقرة، وجمع حطب، وطحن حبٍ، وصناعة أدوات، تاركاً كل ذلك لمتخصصين آخرين في السوق. أما الفلاح أو الحرفي في السياقات غير الأسواقية فقد كان مُنشغلاً بكل عناصر الكفاف رعياً وحَلباً وطحناً وتحطيباً وطبخاً وزرعاً لأكثر من محصول فيتشتت جهده الإنتاجي ويتناقص عكوفه على المنتج الأكثر مردوديةً،[98] هذا إن نجا من عبودية أو إقطاع. وفي هذا السياق ينتبه ابن خلدون وسابقه الطوسي إلى فضيلة تقسيم العمل إذ يقرر هذا الأخير بصدد الإنسان الأسواقي: "أما بيان أنه محتاج لمعاونة نوعه فهو أنه لما كان يجبُ على كل فرد أن ينشغل بنفسه في تحصيل قوته وغذائه ولباسه ومسكنه وسلاحه، فعليه أن يبتدع بيده أولاً أدوات النجارة والحدادة، وأن يهيئ بتلك الأدوات والآلات الزراعةَ والحصاد والطحن والعجن والغزل والنسج والجرف والصناعات الأخرى. ولكن عندما ينشغل بهذه المهمات، لا يمكن بقاؤه بدون غذاء في هذه المدة. وتتوزع أيامه بهذه الأشغال، ولا يكون قادراً على

---

[96] J. R. McNeill and William H. McNeill, *The Human Web: A Bird's-Eye View of World History* (New York, N.Y: W. W. Norton & Company, 2003), 121.

[97] McNeill and McNeill, 127, 138.

[98] مكنيل ومكنيل، الشبكة الإنسانية، 172.

أداء حقوق واحدة من هذه الجملة. أما عندما يتعاون الناسُ فيما بينهم، ويقوم كل واحدٍ بمهمة من هذه المهمات الكثيرة بقدر كفافه، أو يحافظ على قانون العدالة في المعاملة بإعطاء القدر الزائد وأخذ المقابل من عمل الآخرين، عندها تتجمع أسباب المعيشة، ويتيسر وينتظم تعاقب الأفراد وبقاء النوع كما هو حاصل فعلاً. والإشارة إلى هذا المعنى نفسه [...] **ينبغي أن يعمل ألف شخص ليستطيع أن يضع شخص واحد اللقمة في فمه.** ولأن مدار عمل الإنسان هو بمعاونة الواحد الآخر، تتم المعاونة على ذلك الوجه بأن يقوم الجميع بالمهمات [...] بالتكافؤ والتساوي."[99]

الأسواقيةُ مسارٌ طويل شديد التعقيد ويختلط فيه ظلم وخير. لكن التحولات في طبيعة العمل، والمِلكية، والمبادلة، والتنمية أنتجت جملة من المطالبات المثالية التي يراد فيها للعمل تكريمه ومُجازاته أولاً بأن يتحول من الاستعباد إلى الأجر، ومن الإقطاع لحرية العمل، ومن الغَمط في العقود إلى المكافأة، ومن العمالة العضلية إلى التأليل والحوسبة، ومن النبذ خارج السوق للمسن إلى التقاعد المكرَّم. ويراد للملكية في الأسواقية ثانياً الحفظ والصيانة، وذلك بأن تتحول من نهب القبائل وإتلاف الجيوش إلى احترام الملكيات، ومن أتاوات العصابات والسطو على الأرباح إلى الضريبة العادلة، ومن حكر الشركات على العائلية إلى مؤسساتية المُساهمين، ومن العمالة المؤقتة لأصحاب الأملاك إلى التعاونيات والمشاركة في رأس المال. ويراد للمبادلة من الأسواقية ثالثاً الضبط والتعظيم وذلك بأن تتحول من قصور الدقة في المقايضة إلى دقة تسعير العملات، ومن البهرجة وترويج السلع إلى ضمان الترويج وما أعلن عنه، ومن الغش إلى المحاسبة، ومن خفاء المعلومات التجارية إلى التوافر العمومي على الشبكة المعلوماتية. ويراد للتنمية في الأسواقية رابعاً أن تتحول من الاتكال على

---

[99] الخواجة نصير الدين الطوسي، أخلاق ناصري، ترجمة: محمد صادق فضل الله (بيروت، لبنان: دار الهادي، 2008)، 310.

المعارف التقليدية لأساليب الإنتاج وتصميم المنتجات إلى المعارف العلمية والإبداعية، ومن الإقراض الافتراسي إلى الاستثماري، ومن الأدوات الصيرفية البدائية إلى تلك المتكاثرة، ومن الاحتكار إلى التنافسية، ومن الحمائية الإقليمية إلى الكفاءة المعقولة، ومن المتاجرات العرفية إلى المتاجرات المُثلى المناسبة للسلعة والمنتج والمستهلك، ومن سيادة حملة الأسهم إلى الانتماء الاجتماعي، ومن التراكم المطلق إلى التراكم المقيد، ومن التربح الإهلاكي إلى الاستدامة البيئية والاجتماعية. كما يراد من النظام الضريبي في الأسواقية في نموذج دولة الرفاهية تدوير جزء من ثروة الأغنياء القدامى أو الجدد ما بين الربع إلى النصف لتعود هذه الثروة إلى بناء القطاع العام في الدولة (شأن الإسكان والتعليم والتطبيب والمواصلات والاتصالات والأمن والترفيه والإدارات) وكل هذا يدفع بناهضين جدد من قعر الهرم الاجتماعي للصعود التنموي بما توافر لهم من دعم تعليمي ورعاية معاشية للدخول في السوق بمهن أو مبتكرات مستجدة. أوقل **الأسواقية تحث على تنمية مجتمعِ المبادلات العادلةِ لحفظ الملكيات الثابتة ومُجازاةِ العمل على نحو مناسب.**

نعم يشيع في الحداثة الرأسمالية تأليه الزيادة في رأس المال من جهة مطالبة أصحاب الودائع والأسهم لنسب متزايدة للأرباح دون اكتراث بعمالة أو بيئة أو مجتمع، لكن سيطرة السلسلة السببية المتصلة من طاهٍ يلف شطائر الفلافل، لزوجته التي تلف جديلةَ ابنتها، لعوائل تلف المدينة تعليماً لأبنائها، لخريجين يطوفون بين المقابلات طلباً للوظائف، ليس لعمل طقوسي ولا لاعتقاد ديني. هذه السلسلة متصلة لأن الإنسان موجود على ظهر البسيطة ليَكِدَّ ويكدح في طلب رزقه شأنه شأن كل الكائنات الحية حوله، "تغدو خماصاً وتعود بطاناً". وبغير هذا الرزق فلا مَؤُونة ولا تزاوج ولا إنجاب ولا تربية ولا عمالة ولا سلطان، ولا حضارة بالمجمل. وهذه السيرورات ليست من اختراع الحداثة بل موجودة منذ عصور زراعية قديمة. وكما أن جذع الشجرة الغليظ

وأغصانها الباسقة وأوراقها المتكوثرة هي نتاج النسغ الذي تمتصه الجذور وتقوم الشجرة بتحويله نوعياً لورود وثمار وعطور ، فإن فعاليات الحضارة إنما هي تكثيفٌ لعمل الأفراد وملكياتهم ومبادلاتهم وإبداعاتهم لتحوُّل نوعي ينصب في تنمية شجرة رابوع العمران. وبغياب النسغ تموت الشجرة، وبغياب الأسواقية فلا حضارة.

ومن أراد نبذ الثورة الأسواقية الحديثة فعليه التوقف عن الإحالة المتكررة على الحث النبوي على التجارة كما في الحديث المأثور: "التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء"،[100] وقال أيضاً: "عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق".[101] لا بل إن ورطة نقاد الأسواقية كبيرة حين يعلمون أن نبي الإسلام إنما نشأ تاجراً، زوجاً لتاجِرَةٍ، وصهراً لتاجرٍ، وكذا كان خليفته الأول أبو بكر، وفي ذلك كتب أحد أعلام التراث الإسلامي سِفراً تخصص في الباب، أي "الإشارة إلى محاسن التجارة." [102] وما على نُقاد الثورة الرأسمالية الحداثية إلا أن يشددوا على نفي خبثها بنفي مظالمها والإبقاء على محاسنها الأسواقية. والحق أن الأسواقية الحديثة هي التي أشاعت حقوق العمالة وتوثيق المِلكيات، وضبط المبادلات التجارية وضمانها، وعدّ الاستدامة البيئية والاجتماعية أرضية تحتية لحصول التنمية. ولا يمكن إدراك هذه الفضائل فضلاً عن مقاومة آفاتها إلا بأدوات الأسواقية. أما التعرض بالإبطال للأسواقية الحديثة بالجملة،

---

[100] أخرجه التِّرْمِذِيّ وَالْحَاكِم من حَدِيث أبي سعيد. قَالَ التِّرْمِذِيّ: حسن، وَقَالَ الْحَاكِم: إِنَّه من مَرَاسِيل الْحسن، وَلابْن مَاجَه وَالْحَاكِم نَحوه من حَدِيث ابْن عمر. تخريج أحاديث الإحياء المغني عن حمل الأسفار، كتاب آداب الكسب الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه، 503، المكتبة الشاملة.

[101] رَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيب الحَدِيث من حَدِيث نعيم بن عبد الرَّحْمَن «تِسْعَة أعشار الرزق فِي التِّجَارَة» وَرِجَاله ثِقَات، ونعيم هَذَا قَالَ فِيهِ ابْن مَنْدَه: ذكر فِي الصَّحَابَة وَلَا يَصح. وَقَالَ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ وَابْن حبَان: إِنَّه تَابِعِيّ فَالْحَدِيث مُرْسل. تخريج أحاديث الإحياء المغني عن حمل الأسفار، كتاب آداب الكسب، الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه، 504، المكتبة الشاملة.

[102] جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تحرير: محمود الأرناؤوط (بيروت: دار صادر، 1999).

فهو كالتعرض بالقدح للبيوع والمعاملات والديون وشركات المضاربة قديماً، كلاهما إفساد وكلاهما بالحكمة الاستئلافية تتعاظم خيراته.

6.3. الانقلاب السادس، في أن مصالح العقلانية النقدية واجبةٌ، وأنها تطلب غايات وتصادم أخرى، وينبغي بالاستئلاف أن تُقلل مضارها، ولذلك تفهيم. في الاعتراض السادس على الحداثة أعلاه أوردنا حالة جملة واحدة منسوبة للمسيح، أي "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ"، وشرحنا كيف أن تلك الجملة القصيرة، لا بل كل التراث المسيحي وأصوله اليهودية في أوروبا قد صارا تحت مشرحة خُماسية لعلوم اللغويات، والمنطق، الاجتماع، والنفس، والأخلاق. فآل التقليدُ الديني لأن يتنازل عن سلطانه على الثقافة حيث صارت تتعدد تفاسيره، وتتناقض استنتاجاته، وتذعن قوانينه للتاريخانية، وتُفهم سلوكاتُ أعلامه في خضم تفاوتات نفسانية، فصار كل شيء قابلاً للتطور الفكري، وظهر لنا أن الحداثة زلزالٌ طاحن لكل تراث فلا يقين بما ورثناه وقدسناه.

وعلى الرغم من وجاهة الاعتراض السابق، لا يخفى على العارفين بأن ما حصل للمسيحية في الربع الأخير من تاريخها ليس ببعيد عما حصل للإسلام في النصف الأول من تاريخه. وأيُّ دارسٍ مُحقِّق لتاريخ التراث العربي الإسلامي يجزم بأن هذه المشرحة الخُماسية قد طوَّر المسلمون مثلها أو كثيراً منها في سياق تلقيهم لدينهم منذ حملهم للأمانة بعد وفاة الرسول. نعم، فقد اشتغل المجتهدون بدينهم هذا، لا في جو انكشاف ضوء معاني قرآنهم، بل احتاجوا **لكشَّاف** يكشف لهم ما تغطَّى؛[103] ولا في وضعية من القُدرة على الفهم والوضوح بل مفتقرين **للفتح** الذي يزيل الاستغلاق؛[104] ولا في عصر من عصور الصدق والثقة، بل احتاجوا لما يثبت **الصحيح** من ضعيف الروايات

---

[103] المقصود الإشارة إلى تفسير الكشَّاف للزمخشري.

[104] المقصود الإشارة إلى فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

وموضوعها ومكذوبها؛[105] ولا في وضع من البهجة والسرور بل اعتازوا إلى **كشف الغمة**؛[106] ولا في مِزاج من التوافق والتآلف بين الأدلة بل مضطرين إلى **درء التعارض بين العقل والنقل**،[107] ولا في حالة من الإقرار والمباركة لآراء وأقضية وفتاوى بعضهم بعضاً بل محوجين إلى **رفع الملام**،[108] **ورفع الإصر**؛[109] ولا في هيئة من العافية والخصوبة والبراءة من العِنانة الفكرية بل باحثين عن **إرشاد الفحول**؛[110] ولا في حالة من الصحة والسلامة بل مضطرين إلى **الغيّاث**،[111] **والشفاء**،[112] وإلى **النجاة**؛[113] ومن بعد كل هذا فلا مندوحة من تقريع بعض المسلمين **بتنبئة الغبي** منهم،[114] أو **بالصواعق المرسَلة** على من يضلُّ منهم.[115] ومن فوق كل ذلك فلا عاصم لعلوم الدين، على شرفها، من الموت التام، ليأتي من يعالجها **بالإحياء**.[116] **أيُّ دين وأي تراث هذا الذي يحتاج إلى كل هذا (الكشف والتصحيح والفتح والدرء ورفع الملام ورفع الإصر والتفحُّل والشفاء والنجاة والإحياء)؟** لا جرمَ أن هؤلاء المسلمين مع دينهم في مخمصة وأي مخمصة. حتى لكأن المُبَجَّلَ من كتب التراث الإسلامي ما كان ليُؤلَّف إلا لمعالجة وضع **مكابدة**

---

[105] المقصود الإشارة إلى صحيح البخاري للبخاري.

[106] المقصود الإشارة إلى كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني ومثل العنوان في سياق آخر إغاثة الأمة في كشف الغمة للمقريزي.

[107] المقصود الإشارة إلى درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية.

[108] المقصود الإشارة إلى رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية.

[109] المقصود الإشارة إلى رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني.

[110] المقصود الإشارة إلى إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني.

[111] المقصود الإشارة إلى غيّاث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني.

[112] المقصود الإشارة إلى موسوعة الشفاء في أبواب الفلسفة لابن سينا.

[113] المقصود الإشارة إلى النجاة في المنطق والإلهيات لابن سينا.

[114] المقصود الإشارة إلى تنبئة الغبي بتبرئة ابن عربي للسيوطي.

[115] المقصود الإشارة إلى الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطلة لابن قيم الجوزية.

[116] المقصود الإشارة إلى إحياء عُلوْم الدِيْن لأبي حامد الغزالي.

المسلمين لتراثهم من كثرة (التغطية والتدليس والاستغلاق والغمّ والتعارض والعِنة والاعتلال والرعب من الغرق أو الموات نفسه). ولم يُخْفِ المسلمون مكابَدتهم مع دينهم بتاتاً، إذ سموا الفقه أو علم معرفة الأفعال الإسلامية "بالخلاف"، وسموا علمَ الكلام أو مبحث دراسة العقائد الإسلامية "بالجدل". **ومن كان فقهه خِلافاً واعتقاده جَدلاً فاعلم أنه في شأن من المكابدة عظيم، إذ هو يُسْلِمُ لربه مُختلفاً عن غيره في فهمه للتسليم، ويعتقد بربه مُجادلاً غيرَهُ في الاعتقاد بذاتِه وأسمائه وصفاته.** لا بل جاءت طائفة ثالثة من المسلمين رأت في الخلاف على الهيئات العملية للفقه، والجدل على الصيغ النظرية للعقائد، خروجاً عن النيات والمقاصد وأخذوا يخوضون طريقا ثالثاً سمّوه بالتصوف، إذ **الصوفي يُسْلِمُ لربه مُبتَدِعاً في الهيئات لتجديد النية، ويعتقد بربه مجتهداً في التصورات لتحقيق المقصد.** وعقلاء المسلمين بهذا الجدل والخلاف والعرفان لم يعيبوا على ربهم، ولم يذمُّوا قرآنهم، ولا اتهموا نبيهم على ما هم فيه من مكابدة، بل حملوا أمانة الجدل والخلاف والعرفان تدبراً للآية "يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا". والأمر ليس كدحاً لحفظ النفس وطلب الرزق وحسب، لكنه كدح العقل أيضاً في تعيين المراد من الأعمال البدنية والاعتقادات الإيمانية والمقاصد الإحسانية.

ومن كان منا في هذه الأيام من أولي الدربة على المقارنة بين حجج أهل التراث، والقدرة على نقد مذهبه، والجُرأة على الخروج من طائفته، والفحولة للتخيل والإبداع، سيدرك تماماً أن علوم الإسلام كانت ولا تزال تمر بزلزال طاحن لاستكشاف مراد الله لتحقيق الإصلاح بين اصطراعات أهل القِبلة.[117] وعلى الضد، فهذا التدبر لطبيعة علوم الإسلام بعيد أشد البعد عن البلاهة التي يطالعنا بها بعض العوام من خطباء المساجد،

---

[117] محمد المختار الشنقيطي، الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية من الفتنة الكبرى إلى الربيع العربي (الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2009).

كما أن هذا التفكُّر مخالف لليقين الراسخ الذي ينافح عنه المتحزبون وأرباب المذاهب الحركية الإسلامية المعاصرة. لكن الحق على خلاف بلاهة هؤلاء ويقين أولئك. وحسبنا مثال واحد اشتغل على بنائه علماء أصول الفقه من الأحناف في فهم مراد الله، أي دلالة القرآن على المعنى.[118] وللجمهور من الشافعية والمالكية والحنابلة والمعتزلة منهج آخر مناظر اسمه منهج المتكلمين، لكننا نكتفي بمثال واحد ها هنا لإقامة الحجة.

نعم، لقد تفتق عن ذهن الأحناف أن الخطاب الشرعي ينقسم لنصوص واضحة وأخرى خفية، ولم يعب عليهم أربابُ التراث توصيفَ الخطاب الإلهي بالخفاء! **وأما الخطاب الخفي فهو على أربع طبقات تتعمق في غموضها، وهي "الخفي والمُشكِل والمُجمَل والمُتشابه".** فأما "الخفي" فهو ما يعتري العبارة من خفاء ليس ناشئاً من ذات الصيغة لكن من تطبيقاتها على أفرادها،[119] كما في الحديث "ليس لقاتل ميراث". فالقاتل معروف لكن هل القاتل لأبيه بغير قصد مشمولٌ بهذا التعميم؟ وماذا لو أعلم الابنُ جميعَ أهله بحفر بئر لكن الوالد سقط فيه سهواً في الليل فمات؟ فلماذا لا يكون الابنُ بريئاً من القصد إلى قتله فيخرج عن الشمول بهذا اللفظ؟ وأما طبقة "المُشكِل" ثانياً، فهي ما يعتري العبارة من خفاءٍ ناشئ من ذات الصيغة لكنه قد يرتفع بالاجتهاد كما في الآية "إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ" [المائدة: 33]. فهل العقوبات الأربع المفصولة بحرف العطف "أو" في هذه

---

[118] A. Z. Obiedat, "What Did God Intend to Say? Arabic Semantics as a Legal and Cognitive Enterprise," *Journal of Islamic and Muslim Studies of Indiana University Press* 6, no. 2 (November 2021): 1–42. https://muse.jhu.edu/article/857281/file/supp01.pdf

[119] محمد فتحي الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، الطبعة الثانية (دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، 1985)، 71–82.

الجملة تعطي التخيير أم هي موزعة على جرائم مختلفة؟[120] لا ندري على التدقيق إذ في العبارة إشكال. وأما "المجمل" ثالثاً فهو ما خَفِيَت دلالته على المراد منه ولا يرتفع، ولو مع التدبر، إلا ببيان من الشَارِع، كألفاظ الصلاة والزكاة والحج أو الربا.[121] ومعلوم أن مناطات الربا مثلاً لا تزال محل خلاف بين الفقهاء إلى يومنا هذا. وأما "المتشابه" رابعاً، فهو ما خفيت دلالَتُه على المراد منه ولا يسعُ العقل البشري إدراكه كالآية "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"، فلا ندري ماهية ذات الله، ولا ما مثيله، ولا الذي كمثيله. ومما ينضوي في الآيات المتشابهات جُل خلافات المتكلمين حول الذات والأسماء والصفات.[122]

وعلى الضد من ذالك المسار الخفي الرباعي الطبقات في معاني الخطاب القرآني والنبوي، **فمسار الوضوح يكشف عن طبقات أربعة في الوضوح ليست كلها بوضوح الشمس، ألا وهي :الظاهر والنَصُّ والمُفَسَّرُ والمُحكَمُ.** فأما "الظاهر" أولاً فما يتبادرُ للسامعِ المرادُ منه دون أن يكون المقصودُ أصالةً،[123] لكن "النص" ثانياً ما كان مقصوداً أصالةً من سوقِهِ.[124] ومثال الثاني "وأحل الله البيع وحرم الربا"، إذ تحريم الربا هو المقصود من التشريع، أما حِلُّ البيع فمعلوم أصلاً لدى المتلقيين فهو ظاهر وليس مركز العبارة. وأما "المُفسَّرُ" ثالثاً، فهو ما كان مقصوداً أصالة ولا يحتمل التأويل كما في الآية "وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً"،[125] بحيث إن العدد ثمانين لا يحتمل أن يكون تسعة وسبعين ولا واحداً وثمانين. ومع ذلك فهذا المُفسَّرُ يحتمل النسخ والتغيير زمن البعثة. أما "المُحكَم" رابعاً

---

[120] الدريني، 87–93.
[121] الدريني، 105–11.
[122] الدريني، 145–50.
[123] الدريني، 43.
[124] الدريني، 51.
[125] الدريني، 55.

فما كان مقصوداً أصالة ولا يحتمل التأويل ولا النسخ حتى زمن البعثة.[126] وهذا كقوله تعالى: "قل هو الله أحد"، إذ الوحدانية لا تُنسخ بمثنوية ولا تُتأول بتثليث ولا خلافه.

الحاصل من هذا الاستعراض الدَلالي أن أصوليي الأحناف من فقهاء وقضاة ومفتين وأصوليين قدموا إقراراً من داخل المنظومة الفقهية البحتة بأن بعض كلام الله ليس واضحاً كله، بل في طبقات تزداد غموضاً كما في الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه. والطبقة الرابعة غامضة فيما لا مجال للكشف عن معناها مطلقاً. وهذا خلافاً لإصرار كثير من مشايخ اليوم ومتحزبيهم الذين يزعمون أن الخطاب الشرعي واضح جلي من الثوابت التي لا تحتمل النقاش. لكن أصوليي الحنفية هؤلاء يعارضون إصرار هؤلاء المعاصرين ويرون أنه حتى الجلي من نصوص الشريعة على طبقات وأن كل ما كان مقصوداً أصالةً في الطبقة الثانية يحتمل التأويل بتخصيص وتقييد ومجاز، إلا ما كان صارم الدلالة من طبقة المفسر كالاصطلاحات النبوية أو الأعداد أو توكيد العموم مثلاً. **هذا يعني أن جُلّ كلام القرآن ليس واضح الدلالة على أفراده، أي دون رتبة المفسّر، فضلاً عن اشتماله لأنواع الخفي.** أو قل أن جُلّ كلام القرآن قابل للتأويل. لكن الأدهى من كل ذلك أن هؤلاء الأصوليين يرون كل ما في تشريعات القرآن من عبادات وأنكحة وأطعمة ومعاملات محتملةً للنسخ في عهد الرسالة إلا ما وصل رتبة المحكم كوحدانية الله. وهذا يفسر اضطراب المسلمين من السنة والشيعة في حكم زواج المتعة حيث أبيح ونُسِخَ زمن البعثة أكثر من مرة.[127] أمام هذا العتاد اللغوي

---

126 الدريني، 63.

127 "قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا أَعْلَمُ شَيْئًا حُرِّمَ ثُمَّ أُبِيحَ ثُمَّ حُرِّمَ إِلَّا الْمُتْعَةَ، قَالُوا: نُسِخَتْ مَرَّتَيْنِ. وَخَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ آخَرُونَ، وَقَالُوا: لَمْ تُحَرَّمْ إِلَّا عَامَ الْفَتْحِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَتْ مُبَاحَةً. قَالُوا: وَإِنَّمَا جَمَعَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْإِخْبَارِ بِتَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ؛ لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يُبِيحُهُمَا، فَرَوَى لَهُ علي تَحْرِيمَهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدًّا عَلَيْهِ"، محمد بن ابي بكر ابن قيم الجوزية، شعيب الارنؤوط وعبد القادر الارنؤوط، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، 2009)، 450.

المنطقي الصارم والصريح، لا يملك المنصف إلا أن يرى عقلانية نقدية عند هؤلاء الأحناف وإن لم تشمل كل خاموس العقلانية النقدية. ولقد فصلتُ في هذا الباب تفاصيل وأبعاد أعمق غوراً في دراسة مُستقلّة.[128]

هذا الإبداع النقدي الحنفي في باب الدّلالات لا نظير له في فكر المشايخ المعاصرين،[129] وقارن تلك البنية الاجتهادية المعقدة بالخلاصة البسيطة والحدية التي يقدمها ناقد أدبي للحداثة غير مُلمٍّ بتفاصيل العقلانية النقدية في التراث الإسلامي إذا يقول: "ما نُسمِّيهِ 'النسبية الإسلامية 'التي تنطلق من الإيمان بأن الله وحده [هي] الثابت الذي لا يتحول، وما عدا ذلك فمتغير، وهو وحده الذي يحيط بكل شيء."[130] ماذا نستفيد من كون كل شيء متغيراً عدا الله في علوم التفسير؟ هذه النصيحة لا تفيدنا كثيراً في إدراك الظاهر من الخفي، ولا في إدراك الحلال من الحرام! لكن التعقيد الفكري الحنفي يأتي من عمق المعركة العلمية الخلافية للفقه دون اتهام بهوى ولا خروج ولا تشيع ولا تفلسف ولا تزندق ولا إلحاد. وهو إبداع له مناظراته في حقول أخرى دفعت

---

[128] صدر البحث بالانجليزية أدناه وهذه ترجمة عنوانه بالعربية: "ماذا أراد الله بِوَحيِهِ؟ عِلمُ الدّلالَةِ العرَبِيِّ بوصفهِ مَشروعاً مَعرفِيّاً وتَشرِيعِيّاً"، مجلة دراسات الإسلام والمُسلِمين، عن المطبعة الأكاديمية لجامعة أنديانا،

A. Z. Obiedat, "What Did God Intend to Say? Arabic Semantics as a Legal and Cognitive Enterprise," *Journal of Islamic and Muslim Studies* of Indiana University Press 6, no. 2 (November 2021): 1–42. https://bit.ly/3zk7Uw9

[129] خلافا لعلم الدّلالات في التراث، هناك إبداعات معاصرة قام بها المشايخ وتنسب لهم دون شك، من مثل إعادة الطاهر بن عاشور الاعتبارَ لمقاصد الشريعة، وتأسيس مصطفى الزرقا لنظريات فقهية في باب المعاملات، وقيام سيد قطب بتطبيق أسلوب النقد الأدبي وشعور القارئ في تفسيره ظلال القرآن. لكن هذه المحاولات ليست في باب الدلالة المنطقية كما حصرنا المقارنة.

[130] عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة. تحرير: سوزان حرفي (دمشق: دار الفكر، 2009)، 66.

الغزالي لتنبيه الفقهاء على أن "من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه"،[131] وحفزت الجرجاني أن يقرع البلاغيين في كون المعنى لا يتولد إلا داخل نظرية النظم الأكبر، وأثارت ابن خلدون ليوقظ المؤرخين من غفلتهم إذا عكفوا على الحوادث دون دراية بنمط علم العُمران. وخذ رأي ابن رشد في ضرورة اللجوء لأصول الفقه للمتدين وفي السخرية ممن غفل عن ذلك: "فإنه لو فرضنا صناعةَ الهندسة في وقتنا هذا معدومة، وكذلك صناعة علم الهيئة، ورام إنسان واحدٌ من تلقاء نفسه أن يدرك مقاديرَ الأجرام السماوية وأشكالها [وأبعاد بعضها عن بعض]، لما أمكنَهُ ذلك: مثل أن يعرف قدرَ الشمس من الأرض، وغير ذلك من مقادير الكواكب، [ولو] كان أذكى الناس طبعاً، إلا بوحي أو شيء يشبه الوحي. بل لو قيل له إن الشمسَ أعظمُ من الأرض بنحو من مائة وخمسين ضعفاً أو ستين، لَعُدَّ هذا القولُ جنوناً من قائله. وهذا شيءٌ قد قام عليه البرهانُ في علم الهيئة قياماً لا يشُكُّ فيه مَنْ هو من [أهل] ذلك العلم. وما الذي أحوجَ في هذا إلى التمثيلِ بصناعة التعاليم، وهذه صناعة أصولِ الفقهِ، والفقه نفسه لم يَكمُل النظر فيهما إلا بعد زمن طويل؟ ولو رام إنسانٌ من تلقاءِ نفسه أن يقف على جميع الحُجج التي استنبطها النظار من أهل المذاهب في مسائل الخلاف التي وضعت المناظرة فيها بينهم في معظم بلاد الإسلام – ما عدا المغرب – فكان أهلاً أن يُضحَكَ منه، لكون ذلك ممتنعاً، مع وجود ذلك مفروغاً منه."[132]

ودخول هذه المستجدات والتعقيدات على علوم الدين من علم منطق، وعلم دلالة، وعلم عمران، صدم العوامَ فاستشنعوا العقلانية النقدية التي يوجبها عليهم

---

[131] أصل العبارة "ومن لا يحيط بها [أي مقدمة علوم المنطق] فلا ثقة له بعلومه أصلاً"، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحرير: أحمد زكي حماد، المستصفى من علم الأصول (الرياض، السعودية: دار الميمان للنشر، 2016)، 15، http://archive.org/details/FP154688.

[132] ابن رشد، فصل المقال: في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال أو وجوب النظر العقلي وحدود التأويل، تحرير: محمد عابد الجابري (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)، 92–93.

قاضي قضاة قرطبة ابن رشد ضاحكاً عليهم. وهذا يفسر جزئياً ردة فعل بسطاء المشايخ اليوم الرافضين للتوجهات العقلانية النقدية لدى نفر من أعلام التجديد العربي الإسلامي شأن بنيوية محمد عابد الجابري،[133] وتاريخانية هشام جعيط،[134] وتأويلية نصر حامد أو زيد،[135] ومنطقانية طه عبد الرحمن،[136] والمثالية العملية للمرزوقي.[137] والنفرة المعاصرة من ممارسة العقلانية النقدية لهؤلاء الأعلام الأفذاذ تشابه ما حصل إبان مرور أعرابي ببعضٍ من النحاة يتناظرون في مصطلحات النحو في المرفوع والمجرور والمنصوب فاستغرب ذلك الأعرابي وقال قولته: "أراكُم تتكلمونَ بكلامِنا في كلامِنا بما ليس من كلامِنا."[138] ومثل ذلك أن يمر عاميٌّ بأصوليين تراثيين فيعلق: "أراكم تتفقهون بفقه من فقهنا بما ليس من فقهنا"! أو أن يمرَّ عاميٌّ بمتكلمين فيجيب، "أراكم تعتقدون بعقيدة من عقائدنا بما ليست من عقيدتنا." وهذه الاستشكالات والاستشناعات من العوام مردودة، ذلك أن الحياة لا تؤخذ إلا بكدح العمل كما كدح النظر، وهذا الدين لا يؤخذ بغير صياغات نحوية، ومسالك أصولية، واشتغالات كلامية، وتأويلات صوفية هي من كدح العقل المسلم في خضم مكابدته. وما كانت هذه الصياغات قط مستنسخة من الكتاب والسنة. وهذا البزوغ للعقلانية النقدية في التراث

---

[133] محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986).

[134] هشام جعيط، في السيرة النبوية -3- مسيرة محمد في المدينة وانتصار الاسلام (بيروت، لبنان: دار الطليعة، 2015).

[135] نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي (القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002).

[136] طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث (بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1994).

[137] أبو يعرب المرزوقي، دور الفلسفة النقدية العربية ومنجزاتها: موازنة تاريخية بين ذروتي الفكر الفلسفيتين العربية والألمانية (بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث، 2012).

[138] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2022)، 333.

الإسلامي نتاج المكابدة وتكوثر الإسئلة وتكوثر الاجتهادات. وفي هذا السياق يتذمر ناقدٌ تراثيٌ من تعقيداتِ علمِ الكلام الإسلامي ببيت شِعرٍ قائلاً:

يُحلِّلونَ بزعم منهم عُقَداً، وبالذي وضعُوهُ زادتْ العقدُ[139]

والجواب على هذا الناقدِ هو الخطُّ الاستدلالي المذكور لمكابدات العقلانية النقدية الإسلامية واضطرارها لإبداع هذه التعقيدات لمجابهة تراكم المسائل الخلافية بين الإسلاميين، فضلا عن اشتداد اعتراضات الخصوم من النِحَل والأديان الأخرى. وإذا كان المسلمون في عصور قوافل الجمال والتراسل بالحمام الزاجل والتداوي بالأعشاب قادرين على كل تلك العقلانية النقدية، فكيف إذا ما انقلبت الدنيا بتواصل شبكي، وتجارة دولية، وهجرة عولمية، وتعليم للجنسين، وجراحة للجنين قبل ميلاده، **فهل سيُكتفى بنماذج العقلانية النقدية لمُخرجات العصور الزراعية السلطانية من فقه جامد، وكلام بائد، وتصوف هامد؟**

ومن أراد الاكتفاء بتلك النماذج فكيف سيتعامل مع هذه التقريرات التراثية التي لا محل لها اليوم من الإعراب. وسأضرب بعضاً من الأمثلة. المثال الأول قول ابن تيمية: "وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف وقد ذكر العلماء ذلك وتكلموا عليه، وكره أكثر العلماء مناكحة الجن".[140] والمثال الثاني في مسألة أخرى حيث يروي الراوي: "واختُلِفَ هل لإبليس ذريةٌ من صلبه، فقال الشِعبي: سألني رجلٌ فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلتُ: إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرتُ قوله (أفتتخذونه وذريته أولياء) فعلمتُ أنه لا يكون ذريةٌ إلا من زوجةٍ، فقلت نعم. وقال مجاهد: إن

---

[139] علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحرير: شعيب الأرنأووط (دمشق: مؤسسة الرسالة، 2005)، 841.

[140] أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحرَّاني. اعتنى بها وخرَّج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز، الطبعة الثالثة (المنصورة، مصر: دار الوفاء الطباعة والنشر، 2005)، المجلد 19، 24.

إبليس أدخلَ فرجَه في فرج نفسه فباض خمس بيضات، فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلقَ لهُ في فخذه اليمنى ذَكَراً وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانةً."[141] والمثال الثالث هذه الواقعة الشنيعة التي يريد بها أصحابها ذكر الكرامةِ لأولياء الصوفية: "وحكى لي خادم سيدي أبي الخير الكليباتي أن شخصاً أتاهُ وأخبره أنه قال للشيخ: إن زوجتي حامل، وقد اشتهت مامونية حموية، ولم أجدها، فقال له الشيخ: ائتني بوعاء، فأتاه به، فتغوَّطَ له فيها مامونيةً سُخنَةً! فقال الخادم: وأكلتُ منها لعدم اعتقادي أنها غائط".[142] وما كان في أحوال الجن أو الكرامات،[143] ينتقل لعالم الفقه والتشريع بإباحة أكل لحوم البشر في سياقات معينة، وهذا مثال رابع :"وإن لم يجد إلا آدمياً محقون الدم لم يُبَحْ له قتلُه إجماعاً، ولا إتلاف عضو منه مُسلماً كان أو كافراً، لأنه مثله فلا يجوز أن يُبقِي نفسَهُ بإتلافِهِ، وهذا لا خلاف فيه. وإن كان مباحَ الدم كالحربي والمرتد فذكر القاضي أن له قتله وأكله لأن قتله مباح، وهكذا قال أصحاب الشافعي لأنه لا حرمة له فهو بمنزلة السباع، وإن وجده ميتاً أبيح أكله لأن أكله مباح بعد قتله فكذلك

---

[141] محمد بن أحمد أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمُبَيِّنُ لما تضمَّنَهُ من السُنَّةِ وآي الفُرقان، تحرير: عبد الله بن عبد المحسن التركي، المجلد 13، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2006)، 300.

[142] عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحرير: طه عبد الباقي سرور والسيد محمد عيد الشافعي (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، المجلد الثاني، 44.

[143] وخذ هذا المثال الخرافي الآخر المنسوب للكرامات: الشيخ حسن سكر الدمشقي حيث قالوا له: "لا بد أن تظهر لنا كرامةً، فقال: هاتوا لي مائة من المتالكات، وهي قطع صغيرة من الفضة المغشوشة، فجاءوا له بمائة متاليك، فأخذها وألقاها في فمه وابتلعها، وفي الحال جلس بصورة مَنْ يقضي حاجة الإنسان، فأخرجها من أسفله دنانير من الذهب، فأخذوها، وكانت هي السبب في غنى أبي لبدة المذكور". انظر: يوسف ابن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عوض عطوة (غجرات، الهند: مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر، 2001)، المجلد الثاني، 42.

بعد موته، وإن وجد معصوماً ميتاً لم يبح أكله في قول أصحابنا".[144] وهذا مثال خامس مصادم للحس السليم وللعقل العلمي من كل وجه. "فرع: [مَنْ] زنا بامرأةٍ، فوَلَدَتْ بنتاً، يجوز للزاني نكاحُ البنتِ، لكن يُكرَهُ. وقيل: وإن تيقن أنها من مائه [أي من مَنِيِّهِ]، إن تصور تيقنه، حَرُمَت عليه. وقيل تَحرُمُ مُطلقاً. والصحيح: الحِلُّ مُطلقاً".[145]

من كان يرى في الحداثة زلزالاً طاحناً للتراث فليعلم أن في التراثات من المستنقعات العفنة من الأمثلة أعلاه ما يُغرق أي أمةٍ في قذرها وأوحالها. وعليه فلا شك أن أضعافاً مضاعفة من العقلانية النقدية التي تفوق ما قدم الأحناف مطلوبة لمواجهة تحولات رابوع العمران من ثقافة وتقنية وسلطان وثروة. وإذا أكبرنا منجزات الأصوليين وعبقرية المتكلمين وأخلاقية المتصوفين، فكثير من منجزات الحداثة اليوم في خاموس علوم اللغويات، والمنطق، والاجتماع، والنفس، والأخلاق للإكبار والإعجاب أدعى. **وإذا جاز للمبدعين من الأصوليين والبلاغيين والمتكلمين والمتصوفة بين العصرين العباسي والمملوكي التضعيف والنسخ والتخصيص والتقييد والتأويل والتفريع والتكييف لما في الكتاب والسنة لداع من دواعي الاجتهاد، فلماذا تصير سيرورات العقلانية النقدية حراماً على جيلنا اليوم لاعتبارات مخالفة أشد المخالفة؟** فإما أن تستخدم العقلانية النقدية لصالحك أو يستخدمها غيرك للإضرار بك أو الهيمنة عليك. أما التعرض بالإبطال لثورة العقلانية النقدية الحديثة بالجملة، فهو كالتعرض بالقدح لظهور الأبنية النظرية الشامخة لعلوم البلاغة والأصول والكلام والعرفان قديماً، كلاهما إفساد وكلاهما بالحكمة الاستئلافية ينصلح.

---

[144] موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة وأبي القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي، المغني ويليه الشرح الكبير (بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، 2010)، المجلد 11، 79.

[145] أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، روضة الطالبين. تحرير: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (بيروت، لبنان: دار عالم الكتب، 2003)، المجلد الرابع، 448.

7.3. الانقلاب السابع، في أن مصالح التقنيات الدفاعية ضروريةٌ واجبةٌ، وأنها تطلب غايات وتصادم أخرى، وينبغي بالاستئلاف أن تُدْفَعَ ويلاتُها، ولذلك تفسير. من المظالم الكبرى للحداثة استرقاق 25 مليوناً[146] من الأفارقة طوال أربعة قرون ونقلهم للأمريكتين مُزارعين وعمالاً، لا بل الأشد أنه تم القضاء على ما بين خمسين إلى تسعين بالمئة من السكان الأمرنديين في الأمريكتين بالقتل أو التعريض للأوبئة قصداً أو بغير قصد، ما جعل سكان القارة لثلاثة قرون ما بين السادس عشر والتاسع عشر يظلون في حدود 25 مليون نسمة بالرغم من كل موجات الزيادة السكانية من المهاجرين الجدد من أوروبيين ومستعبدين.[147] كان ذلك ما قبل القرن العشرين، أما الملايين الذين قتلتهم الأنظمة الشيوعية في وسط آسيا وسيبريا والصين وكمبوديا، أو الملايين الذين قتلتهم الأنظمة الرأسمالية في حراكها الاستعماري أولاً، ثم في كوريا وفيتنام ولاووس فضلاً عن أندونيسيا وأفريقيا فهو مما لا نكاد نقع فيه على إحصائية تامة.[148] هؤلاء المُحرَّقون بالقنابل، والمخنَّقون بالغازات الكيماوية، والمثقَّبَة أجسادهم بالطلقات، والمَسُومِينَ سوء العذاب في الأقبية لن تقنعهم الحداثة الحربية التي قتَّلتهم تقتيلاً تحت أي شعار، ولن يقوم أي مسوِّغ لدى أمهاتهم المحروقة قلوبهن ولا أبنائهم وأحبابهم المفجوعين.

بالرغم من كل هذه الفظائع الطوام فلا ينبغي لمجموع هذه المظالم أن تطمس جانباً عظيماً من الحداثة أمَّن السلامةَ للغالبية العظمى من البشر بعيد الحرب العالمية

---

[146] مكنيل و مكنيل، الشبكة الإنسانية، 233.

[147] مكنيل و مكنيل، الشبكة الإنسانية، 237.

[148] تُقدَّرُ الخسائر البشرية في الحرب الكورية وحدها بواكير الخمسينيات بين أمريكا ووكلائها الجنوبيين والصين ووكلائها الشماليين بين ثلاثة وأربعة ملايين من أصل ثلاثين مليون من مجموع سكان كوريا. انظر:
Oliver Stone and Peter Kuznick, *The Untold History of the United States* (New York, NY: Simon and Schuster, 2019), 224.

الثانية، **إذ الحداثة الحربية لا تمتلكها يد واحدة، وأصحابها ليسوا على قلب واحد، ولذلك فالحداثة الحربية قابلة للتسرُّب دوماً من يد جلاديها لنُصرة المكتوين بنارها!**

قد يبتلع القارئ ريقَهُ أمام هذه الدعوى المستجدة، لكن ليصبر المتعجب على استيعاب هذه السلسلة من الوقائع التاريخية الحربية الحداثية وليصبر ماذا سنستنبط له من تسلسلها. أولاً، تنتصر بريطانيا في سباقها الاستعماري في شمال أمريكا والهند على فرنسا الملكية في حرب السنوات السبع 1756-1763. وفي بضعة عقود تسترجع فرنسا قوتها بعد ثورتها على الملكية فيغزو نابليون مصر لقطع طريق الهند على الإنجليز لكنه يفشل. ثم يخوض حروباً إمبريالية طاحنةً على أوروبا بذريعة التنوير، فيقضي على جل الممالك والإمارات المنازِعة له في أوروبا إلى أن يخسر على أعتاب موسكو، فيحشد له الإنجليز من بعدُ حلفاً ويهزمونه في معركة ووترلو سنة 1815. ثانياً، في خضم تبعات الحروب النابليونية تنهض بروسيا الألمانية من الهزيمة النابليونية المُذلة فتقوم بتوحيد الإمارات الألمانية المتفرقة لتغزو باريس سنة 1871 في أول ظهور للقوة الجرمانية في العصر الحديث، لكن الدول الأوروبية الأطلسية[149] (أي الإنجليز والفرنسيين والإسبان والبرتغاليين) كانت قد استيقظت وسبقت منذ قرونٍ فاستولت على البقية من قارات العالم ولم تترك هذه القوى للجرمان من المغانم الاستعمارية ما يناسب ضخامتهم السكانية وقوتهم وإبداعيتهم، كل هذا يثير ضغينة جرمانية عظمى! ثالثاً، تخوض ألمانيا المستيقظة على فواتها التاريخي الحربَ العالمية الأولى مع الإمبراطوريتين النمساوية والعثمانية مقارِعَةً لهيمنة الأطلسيين والروس على قارات العالم. لكن الحصار العسكري على تلك القوى المتحدية شديد، فيتخابث الألمان

---

[149] في ذات السياق لا ننسى أن نضيف قوةً غير أطلسية، أي روسيا، باعتبارها قوة استعمارية امبريالية زحفت شرق الأورال على سيبريا ومنغوليا وشمال الصين، وصولا للمحيط الهادئ، بل ودخولاً في ألاسكا وشمال كالفورنيا بحدود 1810.

لكسر الجبهة الروسية بافتعال انقلاب عسكري يخوضه متعاون شيوعي معهم مقيم في سويسرا،[150] أي فلاديمير لينين! وهكذا ينجح في انقلابه بمعونة البحرية في سانت بطرسبرغ، فيخسر الروس الجبهة مع ألمانيا ويسالِمُ الحكمُ البلشفيُّ عدوَّ القياصرة الروسِ أي الألمانَ على الفور. بالرغم من هذا الفوز المرحلي لا تظفر ألمانيا بالفوز بالحرب العالمية الأولى وتظل أزمة السبق الاستعماري ومغانِمِه مُشعِلَةً للضغينة في قلوب الألمان ومعهم اليابانيينَ والطليان بين الحربين العالميتين. رابعاً، تقوم الحرب العالمية الثانية بعد عقدين على يد الفاشيين الألمان والطليان واليابانيين[151] لتعديل كفة اقتسام موارد العالم وهو ما نجحت فيه ألمانيا نجاحاً عظيماً في كامل القارة الأوروبية (خلا بريطانيا وحياد أيبيريا وسويسرا) وهو ما نجحت فيه اليابان أيضاً في كوريا وشرق الصين وجل مناطق الهند الصينية وإندونيسيا. لكن غزوَ هتلر أصدقاءه السوفييت،[152] وغزو اليابان لهاواي الأمريكية، كثر الأعداء على المحور الفاشي فقلب

---

[150] Sean Mcmeekin, "Was Lenin a German Agent?," *The New York Times*, June 19, 2017, sec. Opinion, https://www.nytimes.com/2017/06/19/opinion/was-lenin-a-german-agent.html.

[151] كان في صف النازيين النمساويون والإيطاليون والهناجاريونُ والرومانيون والكرواتيون والسلوفاكيون والفنلنديون والشطر الغربي من الأكرانيين والشطر الحاكم من جمهورية فيشي الفرنسية والشطر الحاكم للنرويج، فضلاً عن الفاشية الصريحة لإسبانيا التي أعلنت الحياد لإنهاكها في حربها الأهلية، والحياد المتعاون مصرفيا لسويسرا، لكن هؤلاء جميعاً يخفون دعمهم التاريخي للنازية بعد خسارة هتلر وهيبةً من القوى التي جدعت أنفه، أي السوفييت والحلف الأنجلو-أمريكي.

[152] الصورة الشائعة للعداوة المطلقة بين السوفييت والنازيين هي صورة ما بعد غزو هتلر للسوفييت. ولقد ترسخت هذه الصورة الروسية العدائية بالاحتفال بذم النازية إلى يومنا هذا في عيد النصر في التاسع من مايو كل عام منذ فتح برلين سنة 1945. لكن العلاقة بين النظامين الشموليين بين الحربين العالميتين كانت على العكس مما نتخيل علاقة صداقة وطيدة، إذ دعمَ القياصرةُ الجرمان حكمَ البلاشفة أولا، ثم دعم جناحٌ عسكري سري في جمهورية فايمر تأسيسَ صناعة جوية عسكرية لألمانيا في قاعدة "ليبتْ سِك" قرب موسكو بين 1926-1933 ضد اشتراطات معاهدة فرساي. ولقد قَبِل السوفييت ذلك مقابل تدريب القوى الجوية

الكفة قلباً شاملاً. فأمدَّ الغربُ السوفييتَ بمدد عظيم مكنهم من كسر شوكة الفاشيين بل واحتلال كامل شرق أوروبا وصولاً لعرينهم في برلين. خامساً، نظراً للضربات الموجِعَة التي قامت بها النازيةُ على بريطانيا وفرنسا تضعضعت سطوة هاتين الإمبراطوريتين على المستعمرات في الأطراف، فبزغت موجة كبرى من الاستقلالات فور نهاية الحرب سنة 1946، في القارة الهندية وبعض البلاد العربية، ثم جاء استقلال الصين سنة 1949. سادساً، يسرق جواسيسُ السوفييت مخططات القنبلة الذرية الأمريكية ويستنسخونها ويفجرون قنبلتهم في أربع سنين لا غير، ويحدث تسابق أمريكي سوفييتي على مغانم الحرب العالمية الثانية، فيُحكِم السوفييت قبضتهم على شرق أوروبا ويتمددون للصين وكوريا الشمالية ثم لكوبا وفيتنام ولاووس وكومبوديا، وتحصل موجة استقلالات كبرى بعد 1956 في آسيا وإفريقيا. سابعاً، يُحاصر الغربُ المعسكرَ الشيوعي اقتصادياً وتقانياً وينهكهم في سباق التسلح حتى يتم شق الصف الشيوعي بحصول الصلح بين أمريكا والصين بالانسحاب من فيتنام سنة 1975. ونظراً لعوامل الضغط الخارجي ومشاكل داخلية كثيرة يتفكك الاتحاد السوفيتي سنة 1991 ما يعزز حظوةَ الصين لتصير مصنع العالم ولتصير حالياً أكبر تهديد اقتصادي وعسكري لأمريكا، لكأن الصين هي المنتصر الحقيقي في الحرب الباردة على خلاف الشائع! لكن لتعود الصين وتصطف مع أختها الكبرى التي أسست استقلالها وصناعتها وشيوعيتها، أي روسيا، في تحالف شديد منذ صعود الرئيس الحالي شي جن بينغ.

الروسية. والنظم التعليمية والصناعية للسوفيت فضلاً عن ماركسيتها في تلك الفترة في جذورها ألمانية. ومعاهدة اقتسام دول البلطيق شطرين للسوفييت والنازيين سنة 1939 دليل على ذلك. وإبان بواكير الحرب العالمية الثانية استمرت هذه الصداقة دون شك حيث كان النفط الذي يحرك آلة الحرب النازية على بريطانيا سوفيتيًّا في شطر كبير منه. كل هذا يوضح مدى الصدمة وعدم التصديق من طرف ستالين لدى غزو النازيين للاتحاد السوفييتي نظراً للصداقة الأكيدة والتاريخية بين النظامين.

سيلاحظ القارئ الفطين من هذه السلسلة السببية كيف تتسرب الحداثة الحربية من المُعتَدِي إلى المُعتَدَى عليه، لكن بشرط أن يكون قادراً على التقاط التجربة الدفاعية ومحاكاتها والإبداع فيها. هذا الالتقاط للتجربة الحداثية تم على مراحل، إذ فوز بريطانيا أولاً على فرنسا في المسرح الاستعماري أدى جزئياً لظهور فرنسا النابليونية التي قضت على كثير من النظم الملكية القائمة وأرّقت بريطانيا نفسها. والغزو النابليوني، ثانياً، سهَّل ظهور الوحدة الألمانية وميلاد أمة عظمى في أوروبا لم يكن لها حضور سياسي ذو بال. ومطالبةُ الألمان، ثالثاً، بحصة من الهيمنة الاستعمارية أفضى لهدم القيصرية الروسية وإدخال قسم عظيم من روسيا ووسط آسيا في تحديث تعليمي وصناعي واجتماعي متسارع من خلال عملائهم الشيوعيين. وغدر هتلر بأصدقائه السوفييت رابعاً، ودعم الغرب للسوفييت لصد هذا الغزو أفضى لإنقاذ أزمة الميلاد لدى المشروع الشيوعي وتدمير النازية الاستعلائية من شرق أوروبا حتى برلين. ثم هكذا كان إضعاف هتلر للفرنسيين والإنجليز يفضي، خامساً، لموجة تحرر واستقلال كبرى في العالم الثالث فضلاً عن إسهامه بتحويل الدولة الفلاحية للسوفييت من قوة عالم-ثالثية لتصير فجأةً قوة كبرى! وزِد على ذلك أن محاصرة الغرب للشيوعية وسياسةَ الاحتواء أدتا، سادساً، لتعاضد الدول الشيوعية فيما بينها وظهور قطب عالمي عسكري صناعي تعليمي واقتصادي من أقصى شرق آسيا في كوريا حتى وسط أوروبا في برلين لا بل عبوراً لكوبا غرباً واليمن الجنوبي جنوباً! لم يكن في حسبان الاستعلاء الأوروبي الأمريكي أن يظهر تحالف سلافي آسيوي يتحدى الغرب بعُجْرِه وبُجَرِه جوياً وبحرياً وبرياً وفضائياً بل ونووياً ويحقق صموداً عجيباً في كوريا وفيتنام وكوبا بل وفي استرجاع سيناء لمصر. لكن شق الصف الشيوعي بمصالحة الصين والمتاجرة معها ونقل المصانع إليها أدى، سابعاً، لجعل الصين صاحبة أكبر قدرة صناعية على ظهر

البسيطة وإلى كونها أغنى دولة في العالم،[153] تحاول اليوم بالمُسيَّرات والسفن والصواريخ الفرط صوتية والذكاء الصناعي تغيير المعادلة الحربية مع أمريكا. لا بل وتتحالف الصينُ مع ميانمار فيما لو أغلق مضيق ملقا عند إندونيسيا للتصدير من ساحلها، ومع باكستان فيما لو أغلق المحيط الهندي للتصدير من سواحلها، ومع روسيا وبيلاروسيا فيما لو أغلقت البحار لصالح سكة حديدية تصل إلى لندن، فضلاً عن التحالف مع إيران وتركيا وجمع من الدول الإفريقية.[154] من كان يظن أن دولة شيوعية متخلفة في الثمانينات كالصين، لا بل دولة فلاحية تعيش المجاعات في النصف الأول من القرن العشرين، ستصير لها السيادة على كل ما سبق في ستة عقود؟

الحاصل أن بريطانيا عن غير قصد ساهمت بتسهيل ولادة الجمهورية الفرنسيةَ، التي استفززت الوحدةَ الألمانيةَ، ففجرت الاتحاد السوفييتي، فتحرر العالم الثالثَ بهنوده وفرسه وعربه، لكن بالحصار الغربي تخلَّق المعسكر الشيوعي العملاق الذي أنجب العملاق الصيني الحالي. من كان يدرك أن ظلم الحداثة يتسَّربُ من المُعتَدي إلى المُعتَدَى عليه؟ ومن كان يدرك أن إرهاب الحداثة ينقلب حُريةً في يد من يدرك ذلك؟

الجواب على هذه المظالم العظمى أن **المُعتَدَى عليه ينتفع بعدوان الحداثة عليه إذا كان مُستلهِما للحداثة لكنه يزداد تباراً إذا كان قاعداً عن التحديث.** وعلى

---

[153] "Global Wealth Surges as China Overtakes U.S. to Grab Top Spot," *Bloomberg.Com*, November 15, 2021, https://www.bloomberg.com/news/articles/2021-11-15/global-wealth-surges-as-china-overtakes-u-s-to-grab-top-spot.

[154] من الضروري إضافة حجج تفكر في الاتجاه المعاكس بتقييد مدى التفوق الصيني على الغرب، أنظر هذه المعطيات الكاشفة، أحمد زهاء الدين عبيدات، "لماذا لن تَخْلُفَ الصينُ ولا سواها أمريكا قريباً؟" accessed November 26, 2022, https://tinyurl.com/5xw4ba7y

الجانب الآخر فإن الغزو الحداثي ومحو الشعوب تم في المجمل على الشعوب غير الكتابية من الأمرنديين في الأمريكتين أو الشعوب الصائدة اللاقطة من الأستراليين والأمازونيين وأقاصي أمريكا الشمالية وسيبيريا. أما الإمبراطوريات والممالك الزراعية الكتابية المقاتلة شأن اليابان والصين والهند، وشأن تركيا وإيران، فإنها التقطت الدرس الحداثي فأنَّى لها أن تُمحى وهي اليوم في مزيد قوة! ويبدو أن العرب في حالة وسطى فهم أمة كتابية مقاتلة، لكنهم يفتقرون للعصبية الوحدوية مع العجز عن طلب التحديث التقاني فآلوا لما آلوا إليه اليوم!

ومن أراد نبذ الثورة الدفاعية الحديثة فعليه التوقف عن الإحالة المتكررة على الأمر القرآني "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" [الأنفال: 60]. وليتوقف ذلك الناقد عن الإعجاب بالعبقرية العسكرية الإسلامية في حروب استرداد الهلال الخصيب مع خالد بن الوليد صدر الإسلام، ومع صلاح الدين الأيوبي في العصر الوسيط، ومع عبد الكريم الخطابي في العصر الحديث. فهذه الأعلام لم نعرف عنها عكوفها على التنسك، ولا انقطاعها للعلوم والآداب، بل عرفنا عنها بَزَّها في العمل الحربي.

من كان يرى في الحداثة الدفاعية إرهاباً فليعلم أن بتركها سيقع في إرهاب أكبر، إن لم يكن تمامَ المحقِ. وعليه فلا شك أن أضعافاً مضاعفةً من التحديث الدفاعي الذي يفوق ما قام به الغرب مطلوب للمزاحمة في الحداثة. وانظر اليوم لمنجزات الطائرات المسيرة التركية التي أسهمت في صدِّ الغزو الروسي لكييف ربيع 2022، وانظر بالمثل للطائرات المسيرة الإيرانية التي أوقفت نصف الإنتاج النفطي السعودي في دقائق وهي الآن تصدر هذه الطائرات لروسيا محاوِلَةً لقلب الوضع في المعركة

الأوكرانية خريف 2022.[155] مَن كان يصدق أن دولتين شرقيتين من دول العالم الثالث، لا بل والدول الإسلامية الخاسرة في الحرب العالمية الأولى، تصدِّرُ التقنية الحربية المتقدمة الأكثر حسماً لحروب اليوم! وإذا أكبرنا منجزات الطائرات المسيرة التركية والإيرانية فإن في مجمل التقنيات الدفاعية للحداثة من البأس والإعجاب ما هو أشد. فإما أن تستخدم الحداثة الحربية لحماية أُمَّتك أو يستخدمها غيرك للفتك بك أو الهيمنة عليك. أما التعرض بالإبطال للثورة العسكرية الحديثة بالجملة، فهو كالتعرض بالقدح للتحرر العسكري الخالدي والأيوبي والخطابي قديماً، كلاهما إفساد وكلاهما بالحكمة ينصلح.[156]

---

[155] "Dozens of IRGC-Linked Flights Landed in Moscow; U.S. Says Drone Deal Advancing," *Haaretz*, accessed August 21, 2022, https://www.haaretz.com/israel-news/security-aviation/2022-08-12/ty-article/.premium/amid-drone-deal-irgc-linked-flights-to-russia-surge/00000182-8bcc-da98-abf6-bfdd2d710000.

[156] من الملاحظات الموضوعية العجيبة أن مجمل الجرائم التي أوقعها الإنسان بأخيه الإنسان في القرن العشرين، بالحرب والإبادة والإرهاب والتجويع لا تزيد على 190 مليون ضحية، أي 4% من مجمل وفيات القرن، بينما كانت الزيادة السكانية الناتجة عن المخترعات والأساليب الحداثية تصل أربعة أضعاف من السكان، أي من 1.6 بليوناً بداية القرن العشرين إلى ستة بلايين نسمة آخره، وهي زيادة لم تحدث تاريخيا قط! وأخص من هذه الأساليب: التحكم 1- بنظافة مياه الشرب و2- تصريف المجاري و3- المطاعيم و4- المضادات الحيوية و5- طرق التعقيم والإشفاء 6- فضلا عن تحسن التغذية بتفجر الإنتاج الزراعي والحيواني. وعليه فالمقارنة بين ما أَحيَتْ الحداثةُ وما قتلت في القرن العشرين تميل لصالح الإحياء والنفع بنحو أشد. أنظر: جون روبرت مكنيل ووليام هاردي مكنيل، الشبكة الإنسانية: نظرة محلقة على التاريخ العالمي، ترجمة: مصطفى قاسم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018)، 380-382.

القسم الرابع: يا نقاد الحداثة، أتهدمونَ خلاصةَ التقدم البشري فضلاً عن مقاصد التحضُّر الإسلامي من حيث لا تدرون؟

1.4. خلاصة تاريخية

أبانت المحاججةُ المطولة في الأقسام الثلاثة السابقة عن سلسلة من الانقلابات للقدح الموصوم بالحداثة ليصير مدحاً، كان ذاك على النحو الموالي: **أولاً**، لقد أَبَنَّا أنَّ ثورة إنتاج اللحوم صارت مقتلةً لشرايين البشر، لكن التعرض لها بالدحض، كالتعرض بالدحض لثورة استئناس الحيوان القديم وما استحدث من أوبئة ومجاعات واستعلائية للفرسان، كلاهما خطأ في التقدير. **ثانياً**، لقد شرحنا أنَّ الثورة الزراعية الخضراء غدت تسميماً للأبدان، لكن التشديد على نفيها، كالمطالبة بنفي الثورة الزراعية القديمة وما اختلقت من فقر غذائي ومجاعات وعبودية للحكام، كلاهما تعسف. **ثالثاً**، فقد أثبتنا أنَّ الثورة العمرانية المدينية آلت تنكيداً على الإنسان، لكن هدمها نظير لهدم ثورة التمدن القديمة وما ابتكرت من أدوات رابوع التمدن، كلاهما حيف. **رابعاً**، فقد برهنَّا أنَّ الثورة العلمية التقنية صارت سرطاناً يخنق الكوكب، لكن التعرض لها بالتحطيم هو كالتعرض بالتحطيم لطلب الصدق والتحقق في علوم الطب والهندسة والحساب من العلوم القديمة، كلاهما مجانبة تامة للصواب. **خامساً**، لقد ميزنا الثورة الرأسمالية الحداثية عن الأسواقية وكيف أن الأولى قد تألَّهت فغدت رباً يُطاف في عبادته أفراداً وشعوباً، لكن المناداة بمحو الأسواقية الحديثة بالجملة، هو كالتعرض بالقدح للبيوع والمعاملات والديون والشركات قديماً، كلاهما وقوع في ظلم عظيم. **سادساً**، لقد أقمنا أنَّ الثورة العقلانية النقدية تحولت زلزالاً لكل المُسلَّمات فلا إيمان ولا سكينة، لكن الهوس بمطلق الذم للثورة العقلانية النقدية الحديثة بالجملة هو كالتعرض بالقدح لظهور الأبنية النظرية الشامخة لعلوم التدبُّر والتأويل من البلاغة

والأصول والكلام والعرفان في التراث الإسلامي قديماً، كلاهما جهل لا شرعية له. **سابعاً**، فقد أظهرنا أنَّ الثورة الحربية تحولت أداةً للغرب لاستعباد الأرض ومَنْ عليها، لكن التعرض بالإبطال للثورة العسكرية الحديثة بالجملة وما أقدرت على تسريب أسباب القوة، هو كالتعرض بالقدح للتحرر العسكري الإسلامي قديماً، كلاهما فيه منع للذود عن النفس والأمة. وعليه ينقلب استنكار المستنكِر إذ قال "أيُّ جنون وإفساد ورذيلة هذا الذي يدعو للاحتذاء بسابوع الحداثةِ ذاك واعتناقها طريقةً للحياة؟" ليصير استنكاره **"أيُّ جنون وإفساد ورذيلة هذا الذي يدعو لنبذ سابوع الحداثةِ واعتناق ضدها طريقةً للحياة؟".**

أو لنقل من كان ينكر على الحداثة الغربية مطلق ثورة إنتاج اللحوم، والثورة الزراعية، والثورة المدينية، والثورة العلمية التقنية، والثورة الأسواقية، والثورة العقلانية النقدية، والثورة العسكرية فلينكر على القرآن والسنة بالمثل تقريظهما للحداثة الأولى للعصور الزراعية-الحضرية المُفتَخِرَةِ بمنافع الزرع والأنعام والتمدن والمتاجرة والتعقل والإدارة والقوة. لذا فليحذر نقادُ الحداثةِ هدمَ مقاصدِ التحضر الإسلامي من حيث لا يدرون.

وإذا كانت الزراعةُ وتدجين الحيوان والتمدُّن والأسواق وتداول التراث ومراجعاته، فضلاً عن العلوم الطبيعية التقنية والأساليب الحربية كلها بِدَعاً ظهرتْ بواكيرُها في العصور الزراعية واشتدت تطوراتُها اللاحقة في العصور الحداثية، فإننا نستظهر أخطرَ ورطة فلسفية في هذا الوجود، مفادُ هذه الورطة:

- أنَّ موجوداتِ هذا العالم والعلاقات فيما بينها ليست محدودةً بشكل مسبق، وأساليب تقليب النظر فيها ومجابهتها عملياً ليست مُحَدَّدةً كذلك، ما يعني **أننا مقذوفونَ إلى هذا الوجود لنلعب لعبةً لم يُحدِّدْ مَلعَبُها، ولا جمهورُها، ولا لاعبوها،**

ولا قوانينُها أصلاً، وأن علينا أثناء المسيرة التاريخية اكتشاف السلوك الأنسب في هذه اللعبة معرفياً ووجودياً وقيمياً في سيرورة متغيرة.[157]

ولو تأمَّلَ المُعارضُ العربيُّ لمنجزات الحداثة اليومَ مناهضةَ الأوروبيين للحداثةِ الإسلاميةِ الباكرة بين العصور العباسية والأندلسية والمملوكية لعلمَ أنه يقع فيما ينهى عنه الآخرين![158] ففي أوروبا تلك تم رفض الطب العربي لصالح الطب المحلي، وحصلت معارضةٌ لاستخدام الأعداد العربية بديلاً عن الأعداد اللاتينية المعقدة، ووقعت حملةٌ شعواء على تعلم الرشدية الأرسطية العربية لصالح الكاثوليكية. وبعد لأيٍ ومعارضة وسجال آلَ الأوروبيونَ أواخر العصر الوسيط وبواكير عصر النهضة للغرف من الطب العربي بتدريس ابن سينا، واستخدام الأعداد والرياضيات العربية، وترجمة بعض فلاسفة الإسلام ومنطقهم! ولو تفكر نقاد الحداثة العرب اليوم في أن الآية تقول "لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في كَبَدٍ" ولا تقول لقد خلقنا الإنسان "في سَخَط"، لعلموا أن المأمول من الكائن البشري مُكابدة العمران وجره لصالحه لا التوقف أمامه بالسخط والتبرم والتبكيت وعدم الإنجاز!

ولقد كان أهون علينا وعلى القارئ أن نعيد تعريف الحداثة بلفظ قرآني آخر وهو الاستعمار. لكنا آثرنا أن نتتبع الإشكاليات من ثمارها الفاسدة، مروراً بجذعها وصولاً لجذورها العميقة. ولا نقصد بلفظ الاستعمار العمل الاحتلالي الاستيطاني للغرب، بل

---

[157] يُعيد أحدُ فلاسفة حلقة فيينَّا – أُتو نويريث (1882-1945) – صياغةَ هذه الورطةِ قائلاً: نحن أشبَهُ ببحارةٍ وجب عليهم على الفور إصلاحُ ثقوب سفينَتِهم وسطَ البحر، فلا امتلكوا الرجوع للميناء الجاف لإعادة بنائها ولا حتى التسوق لإصلاحها بأجود المواد. من المرجع أدناه:

Nancy Cartwright et al., *Otto Neurath: Philosophy Between Science and Politics* (Cambridge University Press, 2008), 155.

[158] ذكرني المؤرخ السوري مؤنس البخاري بهذا التناظر التاريخي.

عمران الأرض على غير ما هي عليه في الحالة الطبيعية، أي التنمية،[159] كما في الآية 61 من سورة هود "هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا". وعليه فكل محاولة بشرية فعَّالة لمعالجة الطبيعة الخام بالإنتاج الزراعي والحيواني والتمدن والأسواقية والتقنية والعقلانية والدفاع هي محاولة عمرانية، أو قُل حداثية. ولو أراد السائلُ مفهوماً للحداثة مُجرداً عن تشخُّصه في تاريخ الثورات الإحدى عشرة للغرب، ومُعتبِراً حصولَ نظائر للتحديث أواخر العصر الحجري بظهور التمدن الزراعي وأواسط العصر الوسيط مع بزوغ العصر الذهبي للإسلام، لقُلنا إن:

- **الحداثة هي طلب الاستجابة المُثلى لتحديات عصر من الأعصار بعد إفراغ الوسع في استئلاف التناقضات التي تُحتمها البيئةُ وتفرضُها التُراثات وتوجبُها مكابدات العصر.**

قد يعترض المُعترض بأن هذا التعريف فضفاضٌ حتى ليكاد يُسوِّي بين "الحداثة" و"التطور التاريخي البشري" نفسه. أو قُل إن هذا الصياغة تقتضي أن يكون نقدُ الحداثة كأنه نقد للحياةِ ذاتها، وأن التشكيك في الحداثة كأنه تشكيكٌ في التطور التاريخي للبشرية. وهذا اعتراض له وجهٌ. أما لماذا ذهبنا هذا المذهب، فلأن أصل مفهوم الحداثة متَّصِلٌ **بالحدوث**، أي أن يظل المرء واعياً **بالأحداث** ومُمسكا بتقلب **الحوادث**. وهذه **الحدوثية** الملازمة لتصور الحداثة تجعلنا نروم معارضةَ تصوير الحداثة على أنها ثقافة عرقية إفرنجية، أو آيدلوجيا مسيحية أوروبية، أو مؤامرة ماسونية، أو هجمة أمبريالية، مع إقرارنا بأنها تتلبس بكل تلك التحيزات دون شك. ما نراه على العكس أن **الحداثة سيرورةٌ بشرية عولمية اتصلت بإنتاج الغذاء، والتمدن، والأسواق، والعقلانية**

---

[159] انظر استدلالاً على هذا التصور باعتبار الحداثة برنامجا للتنمية ها هنا: أحمد زهاء الدين عبيدات، "بين الفلاسفة القارين والأنجلوفونيين: الاستطلاع الفلسفي العربي بين عبودية التقليد والعمل الاستخباري،" مجلة المخاطبات، العدد: 34، لسنة 2020، صفحة 112.

العلمية، والعقلانية النقدية، والحرب، وهي جميعا سيرورات كونيةٌ عابرة للأعراق والأديان والآيدلوجيات والحكومات وإن كانت تتلبس بثقافات مَنْ يمارسها دوماً. أو قل الحداثة تأخذ منافع كل الشعوب والأديان والقارات وتعيد إليها ما أخذت حلواً ومراً. فالبارودُ بدأ صينياً لكنه انتشر في العالم في البنادق والقنابل، والأعداد العربية وصلت الغرب في التجارة وكتبِ الرياضيات لكنها رجعت إليها في العلوم الحديثة، والخوارزميات نشأت إسلامية لكنها انتشرت في العالم في الحواسيب، والقهوة بَزغَت حبشيةً ويمانيةً لكنها تنتشر في عالم اليوم في المقاهي المعولمة بأسماء إيطالية، والبطاطا من تدجين الشعوب الأمرنيدية في أمريكا فإذا بها تنتشر في مطاعم الوجبات السريعة المعولمة، والقطن هندي ومصري وأمرندي ثم صار مع المصانع بريطانية لباساً داخليا لجل البشرية! الغرب لم يخترع كل شيء من عدم، ولا أن سابقيه اخترعوا تلك الأشياء من عدم. الصواب أن جماع كل تلك السيرورات تواشجٌ من الاستعارة والمبادلة والتطوير والترذيل. وعليه فالأجودُ فهم الحداثة على هذه الشاكلة، لأن ما جرى في القرون الخمسة الفائتة من هذه السيرورات قد عم القارات والشعوب فخالط جل شؤون الحياة، لكأنه هو الحياة ذاتها. ولعل من عذر لنقاد الحداثة أن بعضهم يطابق بين الحداثة والتغريب وفي ذلك تفصيل، فإن كان "**التغريب**" هو تبشير بالخضوع للإمبريالية، مصحوباً بهيمنة اللغات الأطلسية والروسية، والصيغ المسيحية من فصل الحكم عن الدين، وأساليب اللباس والأطعمة والعادات والموسيقا الأوروبية، فضلا عن الاستشكلات المخصوصة بالثقافات الغربية، فلا شك أن التغريب آفة مرفوضة في هذه الحالة. وعلة رفض التغريب أنه خارج عن الكونية، ومنقطع عن التواشج مع هموم شعوب العالم، وبعيدٌ عن التحديات الموضوعية للمعاش. بوضع التفريق المفهومي بين الحداثة والتغريب يكون مذهبنا أشد اتضاحاً.

ولا ينبغي لمثقف أن ينخدع بألفاظ القطيعة الإبستمولوجية المطلقة، والثورة المجتمعية التي لا سابق لها، والخلق الفكري على غير مثال سابق، مما يُكثر بعضُ أربابِ الحداثة من إسباغه على مبتكراتهم. إذ لا يخلق الإنسان الظواهر من عدم، بل الحداثة إما تحوير وتغيير لمثال سابق أو توشيج ودمج أو بعث لمنجزات حضارية متباعدة أو ميتة. هكذا وإن كانت الحداثة انقطاعاً عن تلك النُظم المَلكية أو انفصالاً عن تلك السرديات الخرافية إلا أنها بمجموعها وصل وحميمية بمجموع التراثات البشرية وجل منجزاتها الفاعلة، إذ العمران هو رحم الحضارة البشرية. وبما أن كل عمل عمراني هو عمل بشري، أي يُصيب ويُخطِئ، يَعدِلُ ويَظلم، يُحسِن ويُفسِد، يَجمُل ويَقْبُح، تكون محاولات طلب الاستجابة المُثلى لتحديات العصر بالمثل، حذو القذة بالقذة. لكن في زمان مضى كان يجوز لأفراد القبائل العارية أن تفرَّ لمنطقة نائية وحدها فتعيد إنشاء سيرورة التحضر كما تشاء، أما اليوم فلم يعد هناك مكان منعزلٌ يفر إليه المرء عن مجموع البشرية. وإن كان البدوي قديماً لا يملك نسيان اختراع النار والزراعة واستئناس الحيوان وإن هاجر لأقصى ما يمكنه، فلن يمتلك العربي المعاصر التغافل عن تراكم منجزات التمدن والتقنية والعقلانية النقدية مهما تضرر بكثير من مظاهرها.

ومن كان صادقاً في نقده المطلق للحداثة فهو ناقد لمسيرة التحضر البشري نفسها، وناقد لأصول الحضارة العربية الإسلامية نفسها. وعليه فليلبس جلد حيوانات يصطادها مع أهل بيته، وليهاجر مستقلاً عن رابوع العمران وشبكاته، وليخرج عن بدعة استئناس الحيوانات والزراعات والمدائن والكتابات والمستشفيات والتقنيات

لعالم الصيد واللقط، ولننظر كم سيهنأ بعيشه في أدغال الأمازون أو ثلوج ألاسكا أو صحاري جزيرة العرب ومتى ستعاجله المنية وأهله، ألا ساء ما يحكمون.[160]

2.4. خلاصة منهجية

بعد هذا التطواف التاريخي والمنهجي في الاعتراضات المركبة على الحداثة وفي انقلابها لأحوال واجبة، بشرط الاستئلاف، فها قد أدخلناك إلى المصنع المنهجي للقرار البشري الحكيم في مكابدة المعاش والتحضر البشري، وأطلعناك على العمليات التقنية التي يقوم بها الفيلسوف الاستئلافي في تشغيل وتوليد نتائجه.[161] وفي هذا وذاك لم نطلق ذماً دون قيد، ولم نُسبغ تمجيداً دون حذر. لا بل لقد بسطنا لك المسلك المنهجي الذي يجتنب غمط الحداثة أو تمجيدها. وبين هذا وذاك يكون الاستئلافُ حَكَماً يقبل من الذم بعضه مجتنباً أخطره، ومن المجد جُلَّهُ زاهداً بأعسره.

فيا أيها القارئ المِقدام، إذا أنتَ تأملتَ كيف نُسِجَتْ أمثلةُ هذه الدراسة واستدلالاتها من أولها لآخرها، فلابد قد سألتَ نفسك:

- **أنى لهذه الشبكة الفلسفية الاستئلافية أن تنحبك، وكيف تقتدر على هذه القوة الاستدلالية في قلب الشائع من حجج مدرسة فرانكفورت، وما بعد الحداثة،**

---

[160] ولعل القارئ المتتبع انتبه إلى أننا لم نتناول كل ثورات الحداثة الإحدى عشرة، إذ تجنبنا عن قصد الثورة الديموقراطية، والثورة الفردانية-الجنوسية، والثورة الفنية الجماهيرية-الاستهلاكية، والثورة الحاسوبية-المعلوماتية لمعالجاتٍ مقبلة نظراً للتشعب الكبير الذي ستضيفه هذه المناقشة على بحثنا هنا. مع التنبيه أن تطبيقا للمنهجية الاستئلافية للثورة الديموقراطية ظهر في هذه المقالة: أحمد زهاء الدين عبيدات، "نصيحة فوكوياما للأمّة العربيّة: حاكمية الأمّة، واستقلاليّة الإداريين، ومقاصِدِيَّةُ التشريع"، المستقبل العربي، العدد 497، يوليو، 2020، الصفحات: 27-47، https://bit.ly/38jBwuv

[161] انظر استلهام هذا النص من مُلهِمِه، طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة 2، القول الفلسفي: كتاب المفهوم والتأثيل (بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1999)، 429.

واليسار الجديد، وأرباب النقد الأدبي ما بعد الكولونيالي ومن تابعهم من العلمانيين والإسلاميين العرب؟

الجواب أنه ما كان لتأليف هذا النسيج الاستدلالي أن يستجمع الاعتراضات على الحداثة ويرتبها، ثم ينتقل انتقالاً واسعاً بين منطلقات التحضر في العصور الحجرية، مروراً بالعصور الزراعية، ووصولاً إلى العصور الصناعية والحوسبية، ثم يدخل في تقييم القدح أو المدح لانزياح الحداثة المزدوج، لولا استمدادُ الدراسة من ثلاثة روافد يغفل عنها تيار عريض من المفكرين الإسلاميين والعلمانيين العرب. الرافد الأول يُشدد على كون فقه الحضارة لا يُنال من قراءة كتب النقد الأدبي أو كتب الصراع الأيدلوجي أو الطائفي بين الأحزاب أو مذكرات القادة والزعماء، لكنه يُنال من أرباب دراسة الحضارات، أي علماء **التاريخ الكوكبي** على التحديد. هذا الجنس الخاص من التاريخ حقل ضخم لا نكاد نجد أحداً يستشهد به في الوطن العربي خارج حرفة المؤرخين الاختصاصيين. والتاريخ الكوكبي ليس هو التاريخ القومي أولاً، أي ذاك المستمد من أدبيات لُغة قوم مخصوصين كما هو المعهود من التاريخ الإسلامي العربي من الطبري إلى الجبرتي. ولا هو التاريخ العالمي ثانياً، أي ذاك الذي يبني على الأول بالمقارنة بين التواريخ المكتوبة لأقوام متعددين يقاطع بين نتائجها ووثائقها كما هو حال دراسة المستشرقين للحروب الصليبية من مصادر عربية ولاتينية وبيزنطية لوقائع تلك الحقبة. لكن التاريخ الكوكبي هو الثالث الذي يبني على ذينك النوعين لكن بإضافة العناصر السببية الفاعلة في التاريخ البشري من الجغرافيا والمناخ والجينات والأوبئة والأحافير (من الطبيعيات) إلى الاقتصاد والتقنية وعلوم السكان والمؤسسات والثقافات (من الاجتماعيات) إلى الإحصاء والاحتمالات والتنبؤ (من الرياضيات) ليصهرها جميعاً في بوتقة تفسيرية واحدة هي السردية الكبرى للوجود البشري. لا سردية

للوجود البشري تضاهي هذا الخط البحثي التراكمي المعقد. والغمطُ لمبحث التاريخ الكوكبي خسارةٌ كبرى للفكر العربي المعاصر، إذ هو العلم الوحيد الذي يقتدر على تناول جل السببيات الفاعلة في السيرورة البشرية. ومن دون علم التاريخ الكوكبي تظل الأحكام على الطبيعة البشرية، ومعنى الوجود، ومسار الحضارة بالمجمل، تخبطاً كتخبط حاطب ليل. وللقارئ المتتبع أفردنا هامشاً في أهم ما نُقِلَ للعربية عن هذا الحقل الثري.[162]

---

[162] لحسن حظ المكتبة العربية تتوافرُ اليوم على جملة من الأمهات في التاريخ الكوكبي العام، أُحصِي منها قسماً عاماً يناقش "عموم المسيرة البشرية" وآخر اختصاصياً يتتبع ظواهر مخصوصة من وجهة نظر التاريخ الكوكبي، أو التاريخ العالمي على الأقل. فأما من القسم العام للتاريخ الكوكبي فقد ظهر من الكتب المُترجَمَةُ الآتية: 1- قصة الأصل: تاريخ جامع لكل شيء لديفيد كريستيان، 2-التاريخ الكبير: الانفجار الكبير، الحياة على الأرض، وصعود الإنسانية لديفيد كريستيان، 3- التاريخ الكبير ومستقبل البشرية لفريد سباير، 4- تاريخ الأحداث الكبرى: من الإنفجار الكبير الى الزمن الحاضر لسينثيا ستوكس براون، 5- أسلحة، جراثيم، وفولاذ: مصائر المجتمعات البشرية لجارد دايموند، 6- الانهيار: كيف تختار المجتمعات الفشل أو النجاة لجارید دیاموند، 7-الحضارة ومضامينها لبروس مازليش، 8- لماذا يهيمن الغرب اليوم: أنماط التاريخ وماتكشفة لنا عن المستقبل لأيان موريس، 9- تحليل النظم الدولية لإيمانويل وولرستين، 10- تاريخ البشرية لأرنولد توينبي، 11- التحول الكبير: الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر لكارل بولانيي، 12- رباعية تاريخ أوروبا والعالم الحديث لإريك هوبزباوم وتتكون السلسلة من أربعة كتب هي: "1- عصر الثورة (1789-1848)، 2- عصر رأس المال (1848-1875)، 3- عصر الإمبراطورية (1875-1914)، 4- عصر التطرفات (1914-1991)"، 13- طُرق الحرير: تاريخ جديد للعالم لبيتر فرانكوبان، 14- وخلاصة جل هذه الأعمال في كتاب "الشبكة الإنسانية: نظرة محلقة على التاريخ العالمي" لمكنيل. أما التاريخ الكوكبي أو العالمي من زاوية نظر اختصاصات علمية محددة فأحصي هذه المؤلفات وأسمي وجهة النظر التي تدرسها من الحضارة: 1- (الحضارة وتطور العلوم)، العلم في التاريخ لبرنال، 2- (الحضارة وتطور المدينة)، المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها للويس ممفورد، 3- (الحضارة وتطور النفس)، علم النفس التطوري: العلم الجديد للعقل لديفيد باس، 4- (الحضارة وتطور المنظومة السياسية)، أصول النظام السياسي من عصور ما قبل التاريخ إلى الثورة الفرنسية، الجزء الأول، النظام السياسي والانحطاط السياسي: من الثورة الصناعية إلى عولمة الديموقراطية، الجزء الثاني، لفرانسيس فوكوياما، 5- (الحضارة وتطور الاقتصاد)، القوة والوفرة: التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية لرونالد فيندلاي، 6- (الحضارة وتطور اللغات)، إمبراطوريات الكلمة: تاريخ اللغات في العالم لأوستلر، 7- (الحضارة وتطور الفنون)، الفن والمجتمع عبر التاريخ لأرنولد هاوزر، 8- (الحضارة وتطور الدين)، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية لميرسيا إلياد، 9-

والرافد الثاني المُعضِّد للتفكُّر والتفلسُف الشبكي يرى أن تقييم الظواهر المعقدة – ولو بحصول تمام المُكنة من التاريخ الكوكبي والسلاسل السببية للظواهر البشرية– لا يكون بعتاد فلسفي مُهترئ من شأن نقدية فرانكفورت أو هيرمينوطيقا غاديمر أو جينيولوجيا فوكو أو تفكيكية دريدا، إذ كل ذلك العتاد مُقدَّمٌ من لدن جماعة الفلسفات القارية التي تُغمض في القول، ولا تستدخل المنطق، ولا العلوم الطبيعية، ولا الفلسفة التحليلية في منظورها. أما ما قدَّمته هذه الدراسةُ فمستند إلى أرسخ ما توصل إليه الفلاسفة الاختصاصيون في بناء المنظومات، أي أولئك الذين قَدَرُوا شجرة المعرفةَ حقَّ قدرها، فأقروا بالعلوم الصورية (من رياضيات ومنطق وحوسبة) وتفهموا العلوم الطبيعية (من فيزياء وكيمياء وأحياء وتطبيقاتها) وفقهوا العلوم الاجتماعية (من علم نفس واقتصاد وسياسة وإناسة وتاريخ) وانغمسوا في العلوم الإنسانية (من لغات وآداب وفنون وآيديولوجيات وأديان وثقافات). أو قل إن الفلاسفة المنظوماتيين يجزمون بخطورة عزل حقول المعرفة عن بعضها، فيشرعون في دراسة القيود التي تحدثها حقول معرفية ما على إطلاقات حقول معرفية أخرى على نحو ظاهر أو باطن، للوصول إلى غاية "وحدة المعرفة" أو خلوها من التناقض الصارخ على الأقل.[163]

(الحضارة وتطور الفكر الفلسفي)، علم اجتماع الفلسفات: التأثير الاجتماعي والسياسي في نشأة الفلسفات لراندال كولينز، 10- (الحضارة وتطور السرد)، التقليد الأدبي الغربي: مدرسة العصور وكتبها، لهارولد بلوم.

[163] لاستكناه التعريف المستجد للفلسفة بوصفها "**تحليلاً وتوليفاً لجماع العلوم العقلية والطبيعية والإنسانية والاجتماعية**" وللاستفادة من جملة من المصادر المنقولة للعربية من الفروع العشرة للفلسفة، طالِع هذا التوصيف: "الفلسفة في التصور الحديث شجرةٌ متكاملة كثيرة الأغصان، أولاها غصن فلسفة اللغة وبها يتم استيعاب الاختلاف على المعنى من التواصل البشري. وثانيها غصن المنطق حيث يتم كشف الأغاليط والتنسيق بين المعاني التي تبثها استدلالات اللغة. وثالثها غصن فلسفة العلم حيث يتم التحقق من وجود هذه الأنساق المنطقية من عدمه في العالم المادي. ورابعها غصن نظرية المعرفة حيث تتم مراجعة الخطوات المنهجية التي قامت بها الجماعة المعرفية في الخطوات السابقة الثلاث من استنباط للمعنى واستدلال للمنطق وتحقق للعلم، كل ذلك للتأمل في المنجز المعرفي البشري حدوداً وانفتاحاتٍ وإشكالات. وخامسها غصن نظرية

والرافد الثالث أن الدراسة قد قامت بتقريب المسائل تقريباً تداولياً على قدر انشغال المُتلقي العربي وعلى قدر تحديات الوطن العربي، فلا تُوحِشُ عليه المثال ولا تفصله عن ثقافته ودينه بل تربطه بأفقه الخطابي ومزاجه اللغوي ومصادر الحُجية لديه.[164] إذن فالحاصل من تعاضد الروافد الثلاثة من التاريخ الكوكبي والفلسفة

القيم الجمالية التي تدرس اختلاف ما يستحسنه الأفراد والجماعات والشعوب من الفنون والسلوكات والأشياء وكيف يمكن التفاهم والارتقاء بالاختلاف الجمالي. وسادسها غصن نظرية الأخلاق التي تدرس اختلاف تخلُّق الأفراد والجماعات والشعوب وكيف يمكن التفاهم والارتقاء بتنويعاتهم الأخلاقية. وسابعها غصن نظرية العلوم الثقافية (الإناسة أو الانثروبولوجيا) التي ترى اللغات والآداب والأديان والفنون والأخلاقيات والمقررات العلمية فضاء إبداع معنوي يشكّل آصرة لمجتمع معين ضمن تحديات تاريخية مخصوصة. وثامنها غصن نظرية العلوم الاجتماعية التي تحمل سيرورات العلوم الثقافية أعلاه لتموضِعَهَا في سياق التصارع على الثروة والسلطة عبر التاريخ والجغرافيا. وتاسع الأغصان نظرية الكينونة (أو الميتافيزيقا) التي هي تأمل أخير في الفلسفة يجمع (معاني اللغة، واستدلالات المنطق، ونماذج العلم الطبيعي، ومنهجيات المعرفة، وقيم الجمال، ومسددات الأخلاق، وسيرورات الثقافة، وخطط الاجتماع) لتضبط الحدود القصوى التي ولدتها هذه النظريات بحيث يُتوقف عند ما لا يمكن تجاوزه فيتأمل في احترامه أو إمكان تجاوزه. وعاشر المباحث هو جذع شجرة الفلسفة نفسه الذي تدوِّنُ حلقاتُ انتفاخِهِ السنويِّ نُموَّ نصوصِهَا وأسئلتها وأجوبتها عبر القرون بما فيه موت بعض الأغصان أو ظهور فروع مستجدة. الحاصل أن الفلسفة بهذا التصور هي تأملٌ فوقي دقيق في جماع العلوم العقلية والطبيعية والإنسانية والاجتماعية. أو قل في جملة **واحدةٍ الفلسفةُ تأملٌ معمق في معانٍ جلية متسقة، متحققة، ذات مناهج مُراجِعة ، تطلب جمالاً، وخيراً، في سياق انفعال بثقافات محلية وعالمية، لبلوغ الثروة والعدل**." أحمد زهاء الدين عبيدات، "بين الفلاسفة القارين والأنجلوفونيين: الاستطلاع الفلسفي العربي بين عبودية التقليد والعمل الاستخباري." مجلة المخاطبات، العدد 34، لسنة 2020 الصفحات: 116-118، https://bit.ly/335bf27

[164] المكتبة العربية المعاصرة ثريةٌ جداً ومترعة بالكتب المهمة التي تُعلّم أبنائها جوانب متكاثرة من ثقافتها الحية. لكن هذه المكتبة مع ذلك تظل منقسمة في مشاربها بحسب الحدود الطائفية (للتشيع والتسنن والإباضية)، والحدود الدينية (بين الإسلام، والمسيحية العربية، واليهودية العربية)، والحدود الآيدلوجية (للسلفيين والحركيين والقوميين والماركسيين والليبراليين). هذه الانقسامات الثلاثة يضاف إليها انقسام رابع هو جمهور المتعلمين من غير الاختصاصيين في التراث والعلوم الاجتماعية. وهذا الانقسام الأخير ذو شأن عظيم، إذ إن هناك عدداً كبيراً من المثقفين العرب من خريجي العلوم الطبية والتقانية والتجارية لا يفتقرون

المنظوماتية والانهمام بالواقع العروبي هو الإقدار على نسج مثل هذه البحوث، وبغيرها سيظل تناول الظواهر الحضارية الكبرى كالحداثة وغيرها تناولاً قاصراً.

لكن لنذكّر القارئ الكريم بالخطوات الثمانية للمنهج الاستئلافي التي نختصرها بما يلي: **استقرئ المعطيات، وعيِّنْ الجزئيات، وجادِل بين المتقابلات، وصرِّح بالقيم المتقابلة، وابتكر الوسط الأمثل، ولا تتهيَّبْ من التنازل عن القيم المثالية الممتنعة، وداوِم على تكرار الخطوات الستّ، وترقَّبْ من يجاوزك في ذلك من المبدعين ومن الأمم المبدعة.** هذه السيرورة الثُمانيّة للاستئلاف تكشف شأناً عظيماً في نظرية القيم للقرار العقلاني. **إذ التفكير الاستئلافي لا يميدُ ولو خُسفت به الأرضية المعرفية، ولا تتقطع أسبابه ولو تقطعت بعض استدلالاته.** فمن أين يحوز التفكير الاستئلافي هذه القوة الفائقة؟ الجواب في خصائص كثيرة منها أن الاستئلاف ليس نمطاً منطقياً بنائياً

للذكاء ولا للعزيمة في الدخول في النقاشات العقلية والوطنية والدينية، إلا أنهم يظلون في عجز عن الإسهام في مسائل التراث والحداثة العربية بنحو شمولي وتعمقي ومقارَن. حدود الانقسام في الثقافة العربية مع حصول ظاهرة الانعزال عن دراسة العلوم التراثية والاجتماعية يُعسِّر أمر الانغماس في المسائل الفكرية العروبية على نحو لائق علمياً. ولو سأل قارئٌ من هؤلاء عن مداخل تحيط بكثير من جوانب هذه المنجزات وتخفف من الانقسامات والانعزالات فإني أقترح ما يلي هذه الخلاصات المحيطة: 1- الإسلام بين الرسالة والتاريخ لعبد المجيد الشرفي، 2- مدخل إلى القرآن الكريم للجابري، 3-فكرة التاريخ عند العرب من الكتاب إلى المقدمة لطريف الخالدي، 4- تاريخ المجتمعات الإسلامية لأيرا لابيدوس، 5- التفكير البلاغي عند العرب لحمادي صمود، 6- الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي لمحمد حمزة، 7- الله والمنطق في الإسلام: خلافة العقل لجون والبريد، 8- جدل الأصول والواقع لحمادي الذويب، 9- الكلام في التوحيد للحبيب العياد، 10- الصوفية: نشأتها وتاريخها لنايل جرين، 11- العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوربية لجورج صليبا، 12- الدين والعلمانية في سياق تاريخي لعزمي بشارة، 13- العلم والسيادة: التوقعات والإمكانات في البلدان العربية لأنطوان زحلان، 14- تفكيك الاشتراكية العربية علي القادري، 15- الديمقراطية وتحديات الحداثة بين الشرق والغرب لإليا حريق، 16- الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: دراسة جندرية لآمال قرامي، 17- روح الحداثة لطه عبد الرحمن، 18- موسوعة السرد العربي لعبد الله إبراهيم في طبعة المجلدين، 19- أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، 20- المشروع النهضوي العربي لمركز دراسات الوحدة العربية.

مبدئياً ينهار معماره إذا انهارت أسسه بل هو نمط شبكي. والشبكة على النحو العنكبوتي معلقةٌ في الهواء بأكثر من رابط على الأرض والأشجار وكل ما يتاح. وبما أن المنهج الاستئلافي شبكي فهو ليس أحادي الاستدلال ليقيم حجته على علاقة واحدة، فإذا انقطعت تهاوت معها كل الحجج،[165] بل هو شبكي متعدد الأطراف فلو دُحضت إحدى حججه مع تقدم العلوم وتقلب المعطيات بقيت غيرها الكثير وظل هناك إمكان لإصلاح الحجة المنقطعة وإبدال غيرها بها.

الشبكية العنكبوتية تصوُّر استعاري في نظرية المعرفة والقيم،[166] ولهذه الشبكية فضائل، إذ الاستئلاف مرن وعَتِيٌ أمام ريح التقلب المعرفي لأنه لا يقيم حُجيته على مقدمة عقلانية واحدة يجوز كذبها، ولا على قاعدة تجريبية يغلب عليها العجز عن الاستقراء التام دائماً، ولا على اعتقاد بمقدس يجوز أن نفقَهَ ما هو أقدس منه. ولكل من الحالات الثلاث أمثلة. ففي الحالة الأولى للمقدمة العقلانية كقولنا "لا يلتقي الخطان المتوازيان" يجوز أن تسبقها مقدمة أخرى، وتلك أخرى، دواليك للما لا نهاية. **وبما أن أي مقدمة عقلانية تحصر قدرتها الاستنتاجية اللزومية في ما بعدها لا ما قبلها، فلا عصمةَ لأي مقدمة عقلانية بتاتاً بهذا الاعتبار** فالمقدمة السابقة عن التوازي مثلاً تسبقها مقدمة أخرى تقول "على السطوح المستوية، لا يلتقي الخطان المتوازيان". وبتغيير المقدمة لقولنا "على السطوح الكروية المحدبة" تتغير النتيجة لتكون "لا بد أن يلتقي المتوازيان". أما بتغيير المقدمة إلى قولنا "على السطوح الكروية المقعرة" فإننا نحصل على نتيجة تقول "لا بد أن تظل الزاوية منفرجةً فيستمر الخطانِ بالابتعاد عن بعضهما". لاحظ كيف تعددت مسلمةٌ هندسية عقلانية راسخةٌ بتعمق في مقدمات

---

[165] Rescher, *Philosophical Reasoning*, 179-184.

[166] سطَّرَ نيكولاس رشر أحد أعمق وأشمل الكتب التي ناقشت هذه النظرية:
Nicholas Rescher, *The Coherence Theory of Truth* (Oxford, UK: Clarendon Press, 1973).

المقدمات؟ وفي هذا يقع التفكير التأسيسي في ورطات متكاثرة بلجوئه لمقدمة أساس أو مبدأ مقدس يولد منها كل نتائجه فلا يلبث ينهار في أي لحظة من لحظات التغير أو الزلازل المعرفية. أما التفكير الشبكي الاستئلافي فمنفتح على تجدد العلوم ولا تناهي المقدمات في حال ظهورها. أما في الحالة الثانية للقاعدة التجريبية، فقد تُجمِعُ البشرية تجريبياً على كون المرأة لا تصلح وزيرةً للخِزانة أو المصرف المركزي لانعدام مجموع المهارات المحاسبية والإدارية والسياسية لمثل تلك المرأة عبر التاريخ البشري قبيل القرن العشرين. ولكن بعد تعليم ألوف من النساء في التعليم الثانوي العمومي من الجدات في الخمسينيات، وبعد توظيف جيل لاحق من بناتهن في مهن محاسبية ومصرفية في السبعينيات بعد إقرار قوانين المساواة في التوظيف، وبعد ترفيع جيل ثالث من حفيداتِهنَّ بواكير الألفية لإدارة المصارف الفرعية والكبرى بعد شيوع ثقافة تمكين الكفاءات، فإنه يُتصور من بعد هذه الأجيال الثلاثة أن تتوفر امرأة واحدة على الأقل تتوافر على اكتمال للمهارات المحاسبية والإدارية والسياسية ما يكفل نجاحها في منصب وزيرة الخِزانة وهو ما حصل في أمريكا مؤخراً مع جانيت يلين. لاحظ كيف تنقلب قاعدةٌ استقرائية تجريبية ثابتة عبر قرون لضدها بتغير السببيات التاريخية أو الطبيعية. أما في الحالة الثالثة للاعتقاد المقدس، فقد يعتقد المؤمن بقدسية رواية قرآنية كالآية "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ" [البقرة:187]، ما يفضي للسيطرة على فكره وسلوكه الصيامي، حتى يكتشف روايةً حديثيَّةً أخرى تخالفها، فيعمل بالحديث، كما ورد "إذا سمع أحدُكم النداءَ والإناء على يده فلا يضعْهُ حتى يأخذ حاجته منه".[167] هذه الرواية تدل على جواز إكمال طعام

---

[167] محمد ناصر الدين الألباني، "حكم الأكل أثناء أذان الفجر للصائم"، دروس للشيخ محمد ناصر الدين الألباني: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية [الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - 46 درسا] (موقع الشبكة الإسلامية:

https://al-maktaba.org/book/7682/316#p1

المرء من السحور ولو بعد أذان الفجر وهو مخالف لصريح الآية! ثم يتعلم ذلك المتدين ثالثاً أن الحديث ظني لا يقوى على تخصيص القطعي فيعود فيعمل بحكم القرآن لا الحديث.[168] وفي كل مرة من المرات يتقلب المرء بين تحليل وتحريم معتقداً أشدَّ الاعتقاد بما يفعل دون أن يكون مُستَيقناً من مطابقة فهمه للمقدس. ولو أن المتدين أقرَّ بأن استنباطه للأحكام عمل بشري فقهي لا يطابق مقصد الشارع حتماً، كان ذلك أهون وأصوب.[169] الحاصل من الأمثلة السابقة (في تعدد أحوال التوازي، وانقلاب استحالة وزيرةٍ للخزانة لإمكانٍ، وتناقض الاستنباط من المقدس) يشير إلى ضرورة العمل بمنظومة فكرية أكثر اتساعاً ومرونة وهو ما تستوعبه المنهجية الاستئلافية. الاستئلاف أكثر صواباً لأنه تعاضدي بين جملة مناهج. وهو أطول عمراً لأنه تقريبي لا يطلب اليقين التام فيسارع للخطأ. وهو أكثر تواضعاً لأنه تصحيحي أي

---

[168] علماء أصول الفقه لا يجمعون على هذا التوجه، لكن تَرِدُ في أصول الفقه حججٌ وجيهةٌ لدعم هذا الرأي منها: "ولو جاز تخصيصُ القرآن بخبر الواحد لما ردَّ عمرُ رضي الله عنه حديثَ فاطمة بنت قيس رضي الله عنها وهو أنَّ النبيَّ عليه السلام لم يجعلْ للمطلَّقةِ البائنةِ سُكنَى ولا نفقة، لِما كان مُخصِّصاً لقوله تعالى (أسكنوهنَّ من حيث سكنتم) والذي يدلُّ على أنه إنما ردَّه لكونه مُخصِّصَا قولَهُ (كيف نترك كتابَ ربنا بقولِ امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت"، ركن الدين الحسن بن محمد بن شرفشاه الحسيني العوي الأستراباذي الموصلي وعلي بن محمد بن علي باروم، شرح مختصر ابن الحاجب، المسمى، حل العُقد والعُقَل في شرح مختصر منتهى السؤل والأمل (مكة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، 2001)، 294–295: http://www.aruc.org/fullbib.aspx?id=465396.

[169] لدراسة أثر "التفكير الشبكي" على موضوع الإيمان والإلحاد خلافا للتفكير "التأسيسي"، انظر: المقالة الانجليزية أدناه وهذا ترجمة عنوانها، "الالتحاد بالله والتهوين من اختصام المتقدمين والمتأخرين من الملاحدة والموحدين"، مجلة الأديان، 2022:

A. Z. Obiedat, "Mitigating the Strife between Atheists and Islamists in the Arab World: Dissolving Supremacy of Principles within Socio-Historical Reality," *Religions* 13, no. 9 (September 2022): 1–28, https://doi.org/10.3390/rel13090801.

يقبل على نفسه الخطأ بتصويب ذاته. كما أنه أكثر عملانية لأنه في كل سيروراته إنما يطلب صلة المبادئ الفكرية بنتائجها العملية. وهذا يفضي بنا لاستخلاص بديع:

- **المنهجية الاستئلافية هاهنا إقرارٌ بالمذهب النسبي من جهة الوعي بتكوثر المعطيات السببية، لكنَّ الاستئلاف على الضدِّ من المذهب النسبي إصرارٌ في ذات الوقت على الحسم باتخاذ القرار البشري الأمثل يقيناً بضرورة البقاء وأملاً بطلب الأصلح.** أو قل إنَّ المذهب النسبي التام شكٌّ لا معرفةَ ولا قرارَ بعده، بينما المذهب العقائدي اليقيني التام فهو زعمٌ لا مراجعةَ أو تصويبَ بعده، وكلاهما باطل.

وهناك ملمح آخر لقوة التفكير الشبكي العنكبوتي، إذ ينتبه هذا المنهج إلى أن القرار البشري الحكيم ثمرةٌ لنسيج شبكي معقد من السببيات في جل الأحوال، ويبعد أن يكون مسارا خطياً أحدياً. وخذ هذا المثل، فقد يركب ثلاثة أطباء ذات القطار طلباً لمقر عملهم في ذات المستشفى في ذات الساعةِ، فنقول إن وصولهم للعمل "سببه القطار وغايته القيام بالوظيفة" وهي حالة عادية. لكننا نتفاجئ بتفاوت نسيج الدافعية والقرار لكل منهم، إذ الأول يطلبُ المستشفى لتقديم طلب للتقاعد المُبكر لاكتشافه مرضاً عُضالاً يريد فيه التفرُّغ للعلاج ولأهله ولنفسه، والثاني يروم المستشفى طلبا للحصول على شهادة خبرة للانتقال للدراسة في تخصص طبي دقيق في البلاد الأجنبية، والثالث يسعى للمستشفى لإطلاق النار على الفريق الطبي حِقداً منه على استهزاء زملائه به وكيدهم له طوال سنين عمله. نلاحظ هاهنا أن الأطباء الثلاثة يقومون بذات العمل سبباً وغايةً في النطاق المحدود، لكن السلسلة السببية العميقة المُحدِثَة للتسبيب لدى كل منهم مختلفة، كما أن السلسلة الغائية الموجِّهة لفعل كل منهم متباينة جداً. وفي واقعتنا هذه لا عجب أن الطبيب المُقبِلَ على التقاعد المُبَكِّر وكذا الذي يريد

الانتقال للتخصص الطبي لن ينالا ما يريدانه عندما تعاجلهما رصاصات ذلك الطبيب الثالث الغادر، والمتوقع أن يكون اليوم التالي للطبيب المجرم لا في المستشفى بل في السجن انتظاراً لحكم المؤبد. فمن أين ظهرت هذه النتائج من ركوب ذات قطار في ذات الدقيقة وطلب ذات المهنة في ذات البناية؟ لا شك أن السلاسل السببية طويلة جداً ومعقدة، وبإدراك الطبيعة الشبكية للأسباب العميقة والمتقاطعة تزداد قدرتنا على فهم الوجود وعلى إدراك حركيته. والمنهجية الاسئلافية تنبني على التسليم بهذا الوضع الشبكي العنكبوتي لتفهم التفاوت القيمي بين الحضارات والأديان وأنظمة الحكم والمؤسسات، مُسلِّمَةً بأن نقطة انطلاق العرب والصينين والأمرانديين والجرمان على سبيل المثال ليست متطابقة، وأن سيروراتهم التاريخية في الزمان ليست متساوية، وأن غاياتهم المعاصرة ليست متحدة، فأنَّى يكون لأي مفكر الحكم النهائي على هؤلاء وهؤلاء بمسطرة واحدة!

ويمكن تلخيص المنهجية الاستئلافية ببعض النصائح الإجرائية الموالية:

1- اعلم أنَّهُ لا مقدمة استنتاجية قاطعة، ذلك أنه لا مقدمة إلا وتسبقها مقدمة قبلها، أو معها تؤثر عليها، ما يجعل أي عملية استنتاج مرحلية وناقصة بالضرورة.

2- اعلم أنَّهُ لا عملية استقرائية تامة، ذلك أن عناصر الوجود بكليتها لا يُعرف لها نهاية. وحتى لو كانت بعض العناصر متناهية كحبات الرمل في كوكب الأرض، فهي فوق قدرة العارف على إحصائها. وأنه لو أحصينا عدد البشر مثلاً فهناك عدد لا متناه من العلاقات التي تخترق البشر صِغرِيًّا (أي المايكرو)، وتخترقهم كِبرِيًّا (أي الماكرو)، ما يجعل أي عملية استقراء مرحلية وناقصة بالضرورة،

3- اعلم أنَّهُ لا جدل بين طرفين إلا وقد يدخلهما ثالث أو رابع دواليك ما يجعل عملية التوليف متغيرة دوماً،

4- اعلم أنَّهُ لا مشروع أو نموذج أو مخطط أو "برديم" أو فلسفة إلا ومفتقرة للزيادة في عناصرها والتكوثر في علاقاتها السببيَّة، والانزياح في عنقودها الاستئلافي ما يجعل أي عمل استئلافي عملاً مرحلياً تقريبياً يطلب التصويب أكثر من جزمه بالكمال.

بعد كل هذا البيان، قد يعترض القارئ العارف بالفلسفة باستشكال مهم هذه صياغته:

- **هل يُعقل أن المنهجية الاستئلافية بديل عن المنهجيات العقلية أو العلمية التي ترسَّخت عبر قرون؟**

والجواب بالنفي القاطع، إذ المسائل الرياضياتية إما أن يجاب عليها رياضياتياً أو لا يجاب. وفي حال العجز عن الجواب تظل المسائل معلقةً لعقود أو قرون حتى يظهر حلٌّ حسابي لمعادلاتها يستجيب لمتطلبات المنهج العقلي! وكذا الحال في كثير من العلوم التجريبية كمرض السرطان مثلاً، فإما أن يوجد علاج له أو يظل المرض مُصنَّفاً بغير علاج حتى يُستجاب لشروط الطبيعة الحيوية للشفاء من السرطان. وفي كلا الحالين، أي في المنهجيات العقلية أو العلمية لا حيلة يُحتالُ فيها على المتطلبات الصارمة للعقل أو الشرائط المادية للطبيعة. أما في حالة المنهجية الاستئلافية، فهي لا تعاند متطلبات العلوم الصورية ولا تنافس شرائط العلوم التطبيقية بل تجابه القرارات والقيم والأحكام البشرية لبلوغ الأنسب بتلافي أشد الأضرار. ولا يخفى على متأمل أن ما يصح عقلاً أو يصدقُ طبيعةً ليس ذاته الذي يُقبل لدى الإنسان المُكابد. وحسبك هذا

المثال، فالغوصُ في القذر لجماعة صيانة شبكة المجاري في المدينة عملٌ أمثَل ضمن المتاح، واشتراط تعقيم الهواء والماء والأدوات بل والأنفاس لغرفة العمليات الجراحية عمل أمثل ضمن المُكنة، واستنشاق أنفاس حشد من الركاب المُتعبين آخر اليوم في عربة القطار في غياب الأوبئة عمل أمثل أيضاً. المنهجية الاستئلافية تُعين الإنسان على اتخاذ القرار الصالح للمكابدة البشرية في الحالات الثلاث رغم التفاوت والتضارب بين هذه الاستجابات، دون الزعم أنها مبادئ ثابتة للعقل أو قوانين مضطردة للطبيعة. المنهجية الاستئلافية تستلهم كل المنهجيات وتبني عليها لكنها تُدرك أن القرار البشري هو الحَكَم النهائي على الفعل الأمثل دون تمويه على الذات ولا كذب على العقل ولا افتراء على الطبيعة. وحتى نقرب المسألة أكثر، فالمنهجيات العقلية للرياضيات تكون على مستوى الكينونة أو الأنطولوجيا للعدد الموجب أو السالب مثلاً، والمنهجيات التجريبية للأحياء تكون على مستوى المعرفة أو الإبستمولوجيا لمدى تكاثر جنس من الفطريات، لكن المنهجية الاستئلافية ها هنا هي على مستوى القيمة أو الأكسيولوجيا. وبالطبع لا ينجح التفكُّر في القِيمة إلا بعد أخذ الكينونة والمعرفة في الحسبان.

الحاصل أن المنهجية الاستئلافية صادقةٌ جسورةٌ مبدعةٌ متواضعةٌ. أما أنها صادقة فذلك أنها تقرُّ بحالة الكَبَد التي يعيشها الإنسان فتسلم بوجود التعارضات والتناقضات الصلبية في أصل الوجود؛ وأما أن المنهجية الاستئلافية جسورة فذلك لأنها تتقصد تقصداً ألا تكون حياة المدينة مثلاً صفاء وحميمية وعائلية ذلك أن هذه الغايات البديعة تصح منفردةً ولا تتسق مع غيرها مجتمعةً فلا ينبغي حذفها بل مجرد الإنقاص من إشباعها لإتيان غايات أخرى أولى منها أو مناظِرة لها في الأهمية؛ وأما أن المنهجية الاستئلافية مبدعة فذلك لأنها لا تستسلم لهذا الكبد باليأس والقنوط، بل تجاهد في اجتراح التوازنات والحلول الوسط المبتكرة؛ وأما أن المنهجية الاستئلافية متواضعة فذلك لأنها تظل تجزم بأنَّ ضعف الحيلة والنقصان وكثرة التعارضات لا تني

تهجم وتتكاثر على كل المشاريع، وأن أي إبداعية لا تني تقصُرُ عن كمال الإنجاز، فيوقن المفكر الاستئلافي بأن صنيعه ليس أكثر من تسديد ومقاربة، وذاك شأن كل حداثة أو عمران أو تحضر. وعليه فليَحذَر الذينَ تَظلِمُهُم الحَدَاثَةُ أَنْ يُفتَنُوا عن تنوير العمل بالاستئلاف! أو لِنقُلْ فَلا يَجرِمنَّكُم شَنَآنُ ظُلمِ الغَربِ أَلَّا تَطلُبُوا الحَدَاثةَ.

جرد بالمصادر الأجنبية فالعربية

"2004 Honda Accord - Beginning with 2005 Models, Side Airbags Were Made Standard." Accessed March 4, 2022. https://www.iihs.org/ratings/vehicle/honda/accord-4-door-sedan/2004.

Army Technology. "Paramount Marauder Mine Protected Vehicle." Army Technology, October 15, 2020. https://www.army-technology.com/projects/paramountmarauder/.

CDC, Centers for Disease Control and Prevention. "Heart Disease Facts." USA, February 7, 2022. https://www.cdc.gov/heartdisease/facts.htm.

Curtis, Glenn Eldon. *Poland: A Country Study*. Washington, D.C.: Federal Research Division, Library of Congress, 1994.

Department of Economic and Social Affairs. "68% of the World Population Projected to Live in Urban Areas by 2050, Says UN | UN DESA | United Nations Department of Economic and Social Affairs." New York, N.Y: UN, May 16, 2018. https://www.un.org/development/desa/en/news/population/2018-revision-of-world-urbanization-prospects.html.

Diamond, Jared M. *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies*. New York: W. W. Norton & Company, 1999.

Haaretz. "Dozens of IRGC-Linked Flights Landed in Moscow; U.S. Says Drone Deal Advancing." Accessed August 21, 2022. https://www.haaretz.com/israel-news/security-aviation/2022-08-12/ty-article/.premium/amid-drone-deal-irgc-linked-flights-to-russia-surge/00000182-8bcc-da98-abf6-bfdd2d710000.

Gammon, Katharine. "You Eat a Credit Card's Worth of Plastic Every Week: What Is Our Hidden Consumption of Microplastics Doing to Our Health?" *Nautilus: Science Connected*, May 18, 2022. https://nautil.us/you-eat-a-credits-card-worth-of-plastic-every-week-17950/.

Bloomberg.com. "Global Wealth Surges as China Overtakes U.S. to Grab Top Spot," November 15, 2021. https://www.bloomberg.com/news/articles/2021-11-15/global-wealth-surges-as-china-overtakes-u-s-to-grab-top-spot.

Graeber, David. *Debt: The First 5,000 Years*. New York, N.Y.: Melville House, 2011.

"Honda Global | The Airbag System / 1987." Accessed March 4, 2022. https://global.honda/heritage/episodes/1987theairbagsystem.html.

Kant, Immanuel. *Kant's Prolegomena to Any Future Metaphysics*. Edited by Paul Carus. London, UK: Open Court Publishing Company, 1902.

Mcmeekin, Sean. "Opinion | Was Lenin a German Agent?" *The New York Times*, June 19, 2017, sec. Opinion. https://www.nytimes.com/2017/06/19/opinion/was-lenin-a-german-agent.html.

McNeill, J. R., and William H. McNeill. *The Human Web: A Bird's-Eye View of World History*. New York, N.Y: W. W. Norton & Company, 2003.

Moore, Robert. "The 10 Fastest Cars In The World Ranked @ Top Speed." Top Speed, June 25, 2021. https://www.topspeed.com/cars/guides/the-10-fastest-cars-in-the-world-ranked/.

Munblit, Daniel, Diego G. Peroni, Alba Boix-Amorós, Peter S. Hsu, Belinda Van't Land, Melvin C. L. Gay, Anastasia Kolotilina, et al. "Human Milk and Allergic Diseases: An Unsolved Puzzle." *Nutrients* 9, no. 8 (August 17, 2017): 894. https://doi.org/10.3390/nu9080894.

"New 2021 Rolls-Royce Phantom Extended Wheelbase Prices | Kelley Blue Book." Accessed March 1, 2022. https://www.kbb.com/rolls-royce/phantom/2021/extended-wheelbase/.

Njuki, Eric. "A Look at Agricultural Productivity Growth in the United States, 1948-2017." USA: Resource and Rural Economics Division, Economic Research Service, July 29, 2021. https://www.usda.gov/media/blog/2020/03/05/look-agricultural-productivity-growth-united-states-1948-2017.

Obiedat, A. Z. "Mitigating the Strife between Atheists and Islamists in the Arab World: Dissolving Supremacy of Principles within Socio-Historical Reality." *Religions* 13, no. 9 (September 2022): 1–28. https://doi.org/10.3390/rel13090801.

———. *Modernity and the Ideals of Arab-Islamic and Western-Scientific Philosophy: The Worldviews of Mario Bunge and Taha Abd al-Rahman*. New York, NY: Palgrave Macmillan, 2022. https://bit.ly/3IxLVDR.

———. "What Did God Intend to Say? Arabic Semantics as a Legal and Cognitive Enterprise." *Journal of Islamic and Muslim Studies of Indiana University Press* 6, no. 2 (November 2021): 1–42.

Pasadena, Rolls-Royce Motor Cars. "What Are the Rolls-Royce Colors?" Rolls-Royce Motor Cars Pasadena, January 3, 2020. https://www.rollsroycepasadena.com/rolls-royce-colors/.

Pittioni, Richard, and Marija Gimbutas. "Stone Age: Definition, Tools, Periods, Peoples, Art, & Facts." In *Encyclopedia Britannica*, March 9, 2022. https://www.britannica.com/event/Stone-Age.

Prnewswire. "Honda Celebrates Four Decades of Accord - America's Best-Selling Car Over the Past 40 Years." Accessed March 1, 2022. https://www.prnewswire.com/news-releases/honda-celebrates-four-decades-of-accord--americas-best-selling-car-over-the-past-40-years-300292512.html.

Rawat, Karan. "Once Again the Toyota Camry Was the Best-Selling Sedan in America For." *Hot Cars*, January 24, 2022. https://www.hotcars.com/once-again-toyota-camry-was-best-selling-sedan-in-2021-in-america/.

Rescher, Nicholas. *Aporetics: Rational Deliberation in the Face of Inconsistency*. Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 2009.

———. *Autobiography*. 2nd ed. Walter de Gruyter, 2013.

———. *Philosophical Reasoning: A Study in the Methodology of Philosophizing*. Malden, MA: Blackwell, 2001.

Richard Bulliet - History of the World to 1500 CE (Session 2) - Valley Civilizations 8000-1500 BC. New York, N.Y., 2010. https://www.youtube.com/watch?v=zRqYx25iPeg.

Ritchie, Hannah, and Max Roser. "Urbanization." *Our World in Data*, June 13, 2018. https://ourworldindata.org/urbanization.

Safety History. "Safety History: The Honda Accord Sedan - Part 1, 1976-1993." Accessed March 4, 2022. http://carsafetydance.blogspot.com/2013/04/safety-history-honda-accord-sedan-part.html.

Stone, Oliver, and Peter Kuznick. *The Untold History of the United States*. New York, NY: Simon and Schuster, 2019.

The Comprehensive Nuclear-Test-Ban Treaty (CTBT). "The Soviet Union's Nuclear Testing Programme." Accessed August 8, 2022. https://www.ctbto.org/nuclear-testing/the-effects-of-nuclear-testing/the-soviet-unionsnuclear-testing-programme/.

Washington Post. "The Lethal Legacy of Early 20th-Century Radiation Quackery." Accessed May 28, 2022. https://www.washingtonpost.com/health/the-lethal-legacy-of-early-20th-century-radiation-quackery/2020/02/14/ed1fd724-37c9-11ea-bf30-ad313e4ec754_story.html.

TimeMaps. "The Origins of Civilization: From Villages To Cities." *TimeMaps* (blog). Accessed September 6, 2022. https://www.timemaps.com/encyclopedia/origins-of-civilization/.

Tycho De Feijter. "This Is The Cheapest Car In China." *Forbes*, May 19, 2016. https://www.forbes.com/sites/tychodefeijter/2016/05/19/this-is-the-cheapest-car-in-china/?sh=5321b3632fe0.

University of Cambridge. "Hunter-Gatherer Past Shows Our Fragile Bones Result from Inactivity since Invention of Farming." ScienceDaily. Accessed September 6, 2022. https://www.sciencedaily.com/releases/2014/12/141222165033.htm.

US Census Bureau. "Historical Estimates of World Population." Accessed February 15, 2022. https://www.census.gov/data/tables/time-series/demo/international-programs/historical-est-worldpop.html.
Wrangham, Richard. *Catching Fire: How Cooking Made Us Human*. New York, N.Y.: Basic Books, 2009.
Wright, Ronald. *A Short History of Progress*. New York: Carroll & Graf, 2005.

آل غور، المستقبل: ستة محركات للتغير العالمي، ترجمة: عدنان جرجس. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2015
أبو زيد، نصر حامد. هكذا تكلم ابن عربي. القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.
ابن رشد. فصل المقال: في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الإتصال أو وجوب النظر العقلي وحدود التأويل، تحرير: محمد عابد الجابري. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.
ابن سينا، الحسين بن عبد الله. القانون في الطب، تحرير: محمد أمين الضناوي. المجلد الثاني، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.
ابن قيم الجوزية، محمد بن ابي بكر، شعيب الارنؤوط، وعبد القادر الارنؤوط. زاد المعاد في هدي خير العباد. بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، 2009.
أكبر، جميل عبد القادر محمد. قَصُّ الحق: العقل وحتمية الفساد. إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث، 2020.
الألباني، محمد ناصر الدين. "حكم الأكل أثناء أذان الفجر للصائم"، دروس للشيخ محمد ناصر الدين الألباني: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية [الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - 46 درسا]. موقع الشبكة الإسلامية،
الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية مصر. "اعطوا ما لقيصر لقيصر و مالله للة - تفسير كلام المسيح".
البخاري. "فسددوا وقاربوا." الموسوعة الحديثية:

. Accessed May 28، 2022. https://dorar.net/hadith.
الجابري، محمد عابد. بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986.
الدريني، محمد فتحي. المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي. الطبعة الثانية. دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، 1985.
الدمشقي، جعفر بن علي. الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تحرير: محمود الأرناؤوط. بيروت: دار صادر، 1999.
السواح، فراس. الله والكون والإنسان : نظرات في تاريخ الأفكار الدينية. دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2016.
الشنقيطي، محمد المختار. الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية من الفتنة الكبرى إلى الربيع العربي. الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2019.
الطوسي، الخواجة نصير الدين. أخلاق ناصري ، ترجمة: محمد صادق فضل الله. بيروت، لبنان: دار الهادي، 2008.
الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، و أحمد زكي حماد. المستصفى من علم الأصول. الرياض، السعودية: دار الميمان للنشر، 2016.
فخري، ماجد. أرسطوطاليس: المعلم الأول. بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكية، 1958.
القرطبي، محمد بن أحمد أبي بكر. الجامع لأحكام القرآن والمُبَيِّنُ لما تضمَّنَهُ من السُنَّةِ وآي الفُرقان، تحرير: عبد الله بن عبد المحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2006.
المسيري، عبد الوهاب. العلمانية والحداثة والعولمة. تحرير: سوزان حرفي. دمشق: دار الفكر، 2009.
الكلام، يوسف. تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس: دراسة في التأريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي. دمشق: صفحات للدراسات والنش، 2009.
المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. المجلد الثاني. المدينة المنورة: المكتبة السلفية، 1963.

المرزوقي، أبو يعرب. دور الفلسفة النقدية العربية ومنجزاتها: موازنة تاريخية بين ذروتي الفكر الفلسفيتين العربية والألمانية. بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث، 2012.
الموصلي، ركن الدين الحسن بن محمد بن شرفشاه الحسيني العوي الأستراباذي، و علي بن محمد بن علي باروم. "شرح مختصر ابن الحاجب، المسمى، حل العُقد والعُقَل في شرح مختصر منتهى السؤل والأمل". جامعة أم القرى، كلية الشريعة، 2001.
بوبر، كارل. المشكلان الأساسيان في نظرية المعرفة ، ترجمة: نجيب الحصادي. جداول، 2021.
جعيط، هشام. في السيرة النبوية -3- مسيرة محمد في المدينة وانتصار الاسلام. بيروت، لبنان: دار الطليعة، 2015.
دوران، جيلبير. الأنثروبولوجيا: رموزها، أساطيرها، أنساقها، ترجمة: مصباح الصمد. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.
راندال، جون. تكوين العقل الحديث، ترجمة: جورج طعمة. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013.
ستيس، ولتر. فلسفة هيجل، المجلد الأول: المنطق وفلسفة الطبيعة، المجلد الثاني: فلسفة الروح ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام. بيروت، لبنان: دار التنوير، 2007.
عبد الرحمن، طه. تجديد المنهج في تقويم التراث. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1994.
———. فقه الفلسفة 2، القول الفلسفي: كتاب المفهوم والتأثيل. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1999.
———. سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد. بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2015.
عبيدات، أحمد زهاء الدين. "بين الفلاسفة القاريين والأنجلوفونيين: الاستطلاع الفلسفي العربي بين عبودية التقليد والعمل الاستخباري." مجلة المخاطبات، العدد 34 لسنة 2020 الصفحات: 103-132.
———. "نصيحة فوكوياما للأمّة العربيّة: حاكمية الأمّة، واستقلاليّة الإداريين، ومقاصِديَّةُ التشريع". المستقبل العربي، العدد 497، جولاي 2020، الصفحات: 27-47.

فيورباخ، لودفيج. أصل الدين ، ترجمة: أحمد عبد الحليم عطية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991.
كولبرت، إليزابيث. الانقراض السادس: تاريخ لا طبيعي ، ترجمة: أحمد عبد الله السماحي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2014.
كونج، هانز. مشروع أخلاقي عالمي: دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة: جوزيف معلوف وعساف، أورسولا. بيروت: دار صادر : المكتبة البولسية، 1998.
مكنيل، جون روبرت، و وليام هاردي مكنيل. الشبكة الإنسانية: نظرة محلقة على التاريخ العالمي ، ترجمة: مصطفى قاسم. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018.
ممفورد، لويس. المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها، ترجمة: ابراهيم نصحي. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016

مكتبة
t.me/soramnqraa

التعريف بالمؤلف:

A. Z. Obiedat, Ph.D, Assistant Professor of Arabic Language and Culture, Middle East and South Asia Studies Program, Wake Forest University, Address: Wake Forest University, Carswell Hall, PO Box 7347, Winston-Salem, NC 27109, https://wfu.academia.edu/AZObiedat/Papers

يعملُ الدكتور أحمد زهاء الدين عبيدات منذ قرابة عقدين أستاذاً للغة العربية والحضارة الإسلامية بحصيلة تدريسيةٍ بلغت 78 صفاً جامعيّاً. وعلى التحديد منذ سنة 2015 أستاذاً بجامعة ويك فورست بأمريكا. وقبل ذلك عمل مُحاضِراً للغة والفكر العربي بجامعة فرجينيا ومنسقاً لستِّ أساتذة ونحو أربعمئة طالب خلال الفترة من 2007 إلى 2015. وقد صدر له حتى الآن أربعة عشر بحثاً مُحَكَّمَا بالإنجليزية والعربية، يتخصَّصُ كلٌّ منها في ابتكار حلولٍ لإحدى هذه المشكلات: **"الإلحاد والالتحاد"** و**"تفكيك مركزية العقيدة"** و**"التكوثر التأويلي للقرآن"** و**"مَوتُ كليات الشريعة"** و**"تناقضات الهُويّة في الصحوة الإسلامية"** و**"تحقيق الصلة بين أخلاق العلم الطبيعي ومقاصد الشريعة"** و**"الحاكمية الشعبية والحوكمة الرشيدة عند فوكوياما"** و**"قياس الإبداع الأكاديمي"** و**"ضعف العلوم الاجتماعية والإنسانية في الوطن العربي"**، فضلاً عن بحوث لغويةٍ مُفصَّلة في **"تعليم النحو العربي"** وفي الحقول الدَلالية لكل من **"الحبّ"** و**"الصداقة"**. لكنَّ مشكلات **"الأسس المعرفية والأخلاقية للحداثة"** و**"الفصل والوصل بين الدين والعلمانية والعلم"** و**"ربط العلوم الطبيعية بالإنسانية في شجرة المعرفة"** فقد مخَّصَهَا كتابه الصادر بالإنجليزية بما تَرجَمَتُه: **"الصيغة المُثلى للحداثةُ بين الفلسفة العربية الإسلامية والفلسفة العلمية الغربية: صورة العالم بين طه عبد الرحمن وماريو بنغيه"**.

ولقد حصل سنة 2012 على درجة الدكتوراة في فلسفة الدين وفلسفة العلم من جامعة مكجل بكندا، وعلى الماجستير سنة 2004 في الدراسات الإسلامية من ذات الجامعة في التأويل الأصولي وأخلاق التقانة الحيوية، تحت إشراف الأستاذ القدير وائل حلاق. ونال درجة البكالوريوس في الفقه وأصوله من الجامعة الأردنية سنة 2001. يشتغل جاهداً على تعزيز الجسور بين فكر المتصارعين العرب من التراثيِّينَ والتغريبيِّينَ عبر تطوير مفهوم العروبة، ويعمل

على تعميق الفلسفة المنطوماتية بديلا لصراع أنصار الفلسفة القارية والفلسفة التحليلية. وهذا جرد بجملة مؤلفاته المنشورة:

1. Obiedat, A. Z. *Modernity and the Ideals of Arab-Islamic and Western-Scientific Philosophy: The Worldviews of Mario Bunge and Taha Abd al-Rahman*. New York, NY: Palgrave Macmillan, 2022.

من بحوثه العلمية المنشورة بالعربية أو الإنجليزية والمتاحة على الشبكة:

2. بحث مُحَكَّم: "بين الفلاسفة القارِّيين والأنجلوفونيين: الاستطلاع الفلسفي العربي بين عبودية التقليد والعمل الاستخباري"، مجلة المخاطبات لفلسفة العلم والمنطق والتحليل، العدد: 34، لسنة 2020، الصفحات 103-132، https://bit.ly/335bf27
3. بحث مُحَكَّم: "نصيحة فوكوياما للأمة العربية: حاكمية الأمة، واستقلاليّة الإداريين، ومقاصِدِيَّةُ التشريع"، مجلة المستقبل العربي، العدد 497، يوليو، 2020. https://bit.ly/38jBwuv
4. بحث مُحَكَّم: "كيف يمكنُ بَعْثُ كُلِّيَّاتِ الشّريعةِ من مَواتِها؟ أو تسديدُ المقاصِد لأساتذةِ كليّات الشريعة وإصلاحُ المناهج لطلبَتِها"، مؤمنون بلا حدود، فئة: أبحاث عامة، في 32 صفحة. السابع من أغسطس لسنة 2018، https://bit.ly/3qQpm3Z
5. بحث مُحَكَّم: "ما تعليل هامشية الاشتِغال بالإنسانيات والاجتماعيات والفنون في الوطن العربي؟" مجلة تَبَيُّن للدراسات الفكرية والثقافية، العدد 24 من المجلد السادس لربيع عام 2018، الصفحات 121-143، https://goo.gl/kvdSqb
6. فصل مُحَكَّم بعنوان "تَهافُتُ مَركَزِيَّةِ العقيدةِ في الخطابِ الإسلاميِّ وأَوْلَوِيَّةُ المُفاضَلَةِ بين البشر بالعملِ الصالحِ" في كتاب "التسامح في الثقافة العربية: دراسة نقدية"، بيروت، 2018، تحرير: الدكتورة ناجية الوريمي. https://bit.ly/2ZAKjUO

7. بحث مُحَكَّم: "تزاوجُ المنطقِ المجرَّدِ مع الطبيعةِ وديمومةُ توالدِ الخيال الفعال عند د. صلاح عثمان"، مجلة المخاطبات، العدد العاشر لسنة 2014، الصفحات 176-187، https://goo.gl/pdNRMY

8. "Defining the Good in the Qur'an: A Conceptual Systemization" in *The Journal of Qur'anic Studies* of the Edinburgh University Press, 2009: pages 110-120. https://goo.gl/DJ3n4P

9. "Axiomatizing Elementary Arabic Syntax." In the *International Journal for Arabic Linguistics and Literature Studies* (JALLS) 1, no. 1 (2019): pages 73–89, https://bit.ly/307UlMx

10. "Friendship in Arabic: Its Synonyms, Etymologies, and Transformations." In *Friendship in Islamic Ethics and World Politics*, edited by Mohammad Jafar Amir Mahallati (Ann Arbor, Michigan: University of Michigan Press, 2019), pages: 49-67, https://bit.ly/2KKYlad

تُرجِمَ إلى العربية بعنوان: "الحقل الدلالي للصداقة في العربية: مُرادفاتُها وأُثولها وتحولاتها"، ترجمة: د. أحمد عبد المنعم عطية، في الكتاب الجماعي، "رؤية العالم من منظور الصداقة: دراسات في الأخلاق الإسلامية والسياسة العالمية"، تحرير: الدكتور محمد جعفر أمير محلاتي، بيروت: كنز ناشرون، 2021.

11. "The Semantic Field of Love in Classical Arabic: Understanding the Subconscious Meaning Preserved in Love Lexicons through their Etymologies." In *Beloved: Love and Languish in Middle Eastern Literatures* (London: I.B. Tauris, 2017), pages 300-323, edited by Alireza Korangy et al, https://goo.gl/KxC7Gc

12. "Identity Contradictions in Islamic Awakening: Harmonizing Intellectual Spheres of Identity," *Asian Journal of Middle Eastern and*

Islamic Studies (AJMEIS) 13, no. 3 (July 2019): pages 331–350, https://urlzs.com/Kj3vc

13. "How Can Bunge's Scientific-Humanistic Ethics Engage Islamic Moral-Law?" In *Mario Bunge: A Centenary Festschrift*, edited by Michael R. Matthews. (Cham, Switzerland: Springer Verlag, 2019) pages 487-512. https://bit.ly/2MzOSKg
14. "What Did God Intend to Say? Arabic Semantics as a Legal and Cognitive Enterprise," *Journal of Islamic and Muslim Studies* of Indiana University Press 6, no. 2 (November 2021): pages 1-42, https://muse.jhu.edu/article/857281/file/supp01.pdf
15. "Mitigating the Strife between Atheists and Islamists in the Arab World: Dissolving Supremacy of Principles within Socio-Historical Reality." *Religions* 13, no. 9 (September 2022): 1–28, https://www.academia.edu/s/ab1d642ade

مکتبة
t.me/soramnqraa

تُثَوِّرُ حُجَجُ هذا الكتابِ القولَ الفلسفيَّ العربيَّ بتصدِّيها لهذه الاستشكالات الكبرى:

- لماذا اجتمعَ رهطٌ من العلمانيين والإسلاميين العرب - بعد ذيوع فلسفة ما بعد الحداثة - على القدحِ في "مشروع الحداثة"؟
- هل الحداثة أمٌّ لشرورٍ سبعٍ هي: مضار إنتاج اللحوم، وسموم الثورة الزراعية، ونكد العيش في المدن، والخطر البيئي من الثورة العلمية التقنية، وتأَلُّهِ الرأسمالية، والشكوكية العدمية للعقلانية النقدية، فضلا عن إرهابية التوسُّع الحربي للغرب؟
- هل يمكن تأطيرُ الاختلاف على الحداثة بوضعِ تعريف جامع مانع لها؟
- كيف تترابط نظريات المعرفة والقيمة والعمل لتقييم الفِعل الحضاري؟
- كيف تُمكِّنُ "منهجيةُ العناقيد الاستئلافية" التي ابتكرها الفيلسوف نيكولاس رِشَر على هِداية الإنسان في مكابدته لسيرورة التحضُّر؟
- كيف تَقدِرُ معطياتُ "التاريخِ الكوكبي" على إحداث الانقلاب التام للاعتراضات السبعة على شرور الحداثة لتصيرَ تحويراتُها من المحاسن، بل الضروريات الواجبة؟

د. أحمد زهاء الدين عبيدات

منشورات 2024
خطـــوط وظـــلال للنشـــر والتوزيـــع
الأردن، عـمان، جبـل الحسـين، بنايـة (20)
ص.ب: 11190، عـمّـــان 925220 الأردن
تلفـون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+
email: dar5otot@gmail.com
دار خطوط للنشر والتوزيع

مكتبة
t.me/soramnqraa